

لماذا تأخر المسيحون ولماذا تقدم غيرهم

تأليف
الأمير شكيب أرسلان

مراجعة
الشيخ حسن تميم
القاضي الشرعي

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

طبعة جديدة ومنقحة

لماذا تأخر المسيحيون
ولماذا تقدم غيرهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

قصة « التخلف » بين المسلمين قصة حديثة ، بدأت منذ أن بدأ المسلمون يذوقون طعم « الهزائم المصرية » في بلاد المجد المفقود - الاندلس - ، ولا شك في ان المسلمين عموماً ، كانوا يتقبلون ما تأتي به الاقدار ، وما تسوقه اليهم الايام ؛ من مواقف انكسار طارئة ، أو نكبات ظرفية ، أو خسارات موضعية ، كانوا يتقبلون كل ذلك بروح مؤمنة ؛ وقدرة مطمئنة ، ونية خالصة من الشكوك والاهام ، صادقة العزم على تحويل الاحوال ، وتغيير الاوضاع ، واقتناص الانتصارات بشتى الوسائل والاساليب الشريفة .

والأمم كالأفراد ، تمرّ بها صنوف الاختبارات وتطيف بها انواع البلايا ، وتقلّب في حياتها بين ادوار العز والاستكانة ؛ والغلبة والمهانة ومن خلال صعودها في هذه الادوار ، وحفاظها على القيم ، يجري تصنيفها بين الأمم في قائمة « المتخلفين او النامين او المتفوقين » .

ولعلنا لانجافي الحقيقة إذا زعمنا ان السؤال الرهيب « لماذا تأخر

المسلمون ؟ ، لم يكن ليرد على ذهن أحد من عامة المسلمين ؛ قبل منتصف القرن السادس الهجري . لسبب بسيط وهو أن السؤال في تلك الفترة ، كان غير ذي موضوع ... إذ لم يكن له أصل في واقع الحياة الإسلامية ، فسفينة «الدولة الإسلامية» تسير رخاء ؛ والهيبة وافرة ، والثروة أوفر ، وليس في ميدان الحضارات منافس ؛ ولا في ساحة الأفكار والآراء نداء ولا مقارع .

أما فيما بعد ذلك ، فقد طرأت على « الوجود الاسلامي » شرقاً وغرباً تغييرات مهمة ، استوقفت الانظار واستقطبت الأفكار ، الأمر الذي تكونت معه عناصر السؤال المرير : لماذا تخلف المسلمون ؟ وهذه التغييرات لا يمكن حصرها وتحديدتها في هذه المجالة ، إلا أن أهم هذه التغييرات وأمهاها هي :

أولاً - بروز الطاقة التخريبية الشرسة ، والروح البربرية الطاغية المتمثلة في موجة التتار الآتية من الشرق ؛ والتي اكسعت امامها كل مظاهر الحضارة ، وسحقت كل آثار العمران ، في أقصر فترة من الزمن - نسبياً - وفي حقبة ، كانت الأمة الإسلامية فيها تهباً مقسماً بين الدولات ، وشيخاً متنافرة بين الطوائف والمذاهب .

ثانياً - بروز للطاقة العدوانية التنصيرية ؛ المتمثلة في الحملات الصليبية الضخمة ؛ والتي كانت تتجهز من جهات أوروبا الأربع ، لضرب كيان الأمة الإسلامية في صميمها .

ثالثاً - بروز التحرك القومي الحاقدي ؛ المتمثل في تحالف ممالك «قشتالة» ، في الأندلس ؛ ونجاح هذا التحالف في قيادة «حرب الاسترداد» المقدسة التي شنّها ضد المسلمين .

رابعاً - اكتشاف البارود وتطوير استعمالاته الحربية ، وتوظيفه في ضرب

الحصون والقلاع الاندلسية ، وفي عملية إجلاء ستة ملايين مسلم من الاندلس وتشريدهم في سائر بلدان سواحل البحر الابيض المتوسط .

خامساً - احتدام حركة هدم البنية الاسلامية من الداخل عن طريق الانقسامات الفئوية ؛ والتحزبات العنصرية والتجمعات الاقليمية ، والخلافات المذهبية وأخيراً عن طريق تشجيع الحركات الباطنية بشق اشكالها وصورها ومضامينها ، وتأثير هذه الحركة على مسار الدعوة الاسلامية .

سادساً - تشجيع التجزئة الادارية في ساحة الدولة الاسلامية ، ودعم حركات الانفصال والاستقلال تحت ستار القومية تارة والشعبوية تارة اخرى . حتى أصبحت الأمة خاضعة للمديد من الدويلات ، التي يناصب بعضها العداء لبعض .

سابعاً - شل الدعوة الى الاسلام كنظام حكم وأسلوب حياة ، ونغط عيش وتمايش ، وسجن هذه الدعوة ضمن جدران المسجد ، وتقزم مفهوم الدين بحيث لا يتجاوز نطاق العبادة والتعبد الشخصيين فقط .

ثامناً - التخلف العام ، عن ركب الحضارة الحديثة ، وعدم متابعة النهضة العلمية في ميدان العلوم الطبيعية والصناعات وسائر مرافق الحياة .

هذه هي ، في رأينا أهميات الاسباب التي تكوّنت منها عناصر السؤال المرير : لماذا تأخر المسلمون ؟ ولقد واجه الأمير شكيب ارسلان ، رحمه الله وأجزل ثوابه ، هذا السؤال بشجاعة وحكمة وعلم ؛ ونسج له جواباً جامعاً ضمنه خلاصة علمه ، وزيدة تجرئته ، وعنوان درايته ؛ ولا أحد ينكر فضل أمير البيان في التصدي للجواب عن السؤال المرير ، ولا أحد يتجاهل مفاعيل رسالة الأمير شكيب وتأثيراتها الايجابية في حياة الأمة الاسلامية .

إلا أن السؤال ، بكل أسى وأسف ، ما برح مطروحاً بالحاح ، وما

فتنت الاجابة عليه كلاماً جميلاً لا يتقدم بالامة ائمة واحدة نحو التقدم
الفعلي المنشود .

يقول أحد الأدباء : « أمران لا يحدد لها وقت بدقة ، (١) : النوم في
حياة الفرد . (٢) : الانحطاط في حياة الأمة . فلا يُشعرُ بها إلا إذا غلبا
واستوليا » .

ومن البديهيات التي لا يجادل فيها أحد أن الاسلام « مبدأ » أتمه الله تعالى
وأكمه وارتضاه لخلقه من أجل فلاحهم وسعادتهم وخير دنياهم ؛ بواسطة خاتم
أنبيائه ورسله سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه .

والمسلمون هم أهل هذا المبدأ المطالبون بحمله وتبليغه وتطبيقه والالتزام
به ، وبنسبة ما يلتزم أهل هذا المبدأ به يتحقق وجودهم ووجوده ، وبنسبة
ما يتغافلون عنه ويتجاوزون أحكامه ، ويتساهلون في نقض اركانه وتجاهل
اشراطه ، يتغافلون عن دورهم في الحياة .

وبعبارة أخرى : الاسلام هو قدر المسلمين .

وبعبارة أشمل : الاسلام هو قدر الانسانية .

وقد يصيب التخلف عناصر المسلمين ، افراداً وجماعات ودويلات ايضاً ،
ولن يكون هذا لسوء حظ المسلمين وحدهم ، بل لسوء حظ الانسانية
جميعاً . لأن هذا المبدأ لا يخص العرب فحسب ، ولا يخص الامم والشعوب
التي دانت بالاسلام وحدها ، بل هو هدية الله وهدايته لبني البشر .

ولقد أتى على الإنسانية حين من الدهر ، اسلمت فيه قيادها للمسلمين ،
وارتضت بحكم الاسلام ، فما جنت في ذلك الحين إلا الحضارة ، ولا عرفت
إلا السلام ؛ ولا ساد فيها إلا العدل ولا شاع إلا الخير .

فماذا جنت الانسانية بانحطاط المسلمين ، وتعطيل الاسلام ، وما هي

محاسن الحياة في ظل سيادة المادة والماديين ، والعلم والعلمانيين ؛ والحضارة
الحالية والحضاريين .

لقد حرم اهل هذا العصر انفسهم من الدين ، ومن الصلة بالله ، ونسوا غاية
خلقهم ومبدأهم ومصيرهم وقالوا « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما
نحن ببعوثين » وآمنوا بمبادئ المادة واللذة والحرية المطلقة ، والقوة والانتفاع
وتنافسوا في امتلاك الوسائل التي تؤدي بهم الى تحقيق تلك المبادئ ، وأدى
بهم التنافس الرهيب الى اختلاط الوسائل بالغايات ، وفقدان تعادل القوة مع
الاخلاق ؛ واختلال توازن المادة مع الروح ، فانطلقوا في ميادين العلم
والتحقيق والتجربة من نقطة فاسدة: نقطة الاحاد والمادية ، ونظرة زائفة :
نظرة أن الكون ليس له إله ، وأنه ليس وراء المشاهد والمحسوس شيء ،
فاختل أساس مدنيّتهم ؛ وعبدوا ذواتهم ، واتخذوا إلههم هوام ؛ واستعبدتهم
الآلة ، وفتك بهم العلم ، وفشلوا في معالجة ادوائهم فشلاً ذريعاً .

ومن هنا ، فان المسلمين مطالبون بالنهوض من كبوتهم وبالتخلص من آثار
تخلّفهم ، وباستئناف دورهم الانساني . لأنهم ، كما اثبتت التجربة ، هم حملة
مِشعل النور ، ويبيدهم مفتاح الخير ، وعندهم جواب كل مسألة ، وعلاج كل
علة وسيكون من حسن طالع الانسان ان ينقاد « لرسالة » الاسلام .

ولئن وفق أمير البيان شكيب ارسلان ، في بيان أسباب تأخر المسلمين
وأسباب تقدم غيرهم ؛ فان في توفيقه هذا ما ينير الطريق أمام هذه الأمة
لتعاود القيام بدورها الحضاري مرة أخرى .

وتلك هي الغاية المرجّحة من نشر الكتاب في البدء ، ومن اعادة
طبعه الآن .

والله المستعان ، ومنه الهداية ، وعليه التكلان .

حسن تميم
القاضي الشرعي

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرة عامة عن أمير البيان وصاحب المنار

١ - شكيب أرسلان :

شكيب أرسلان ، امم أضاء في أفق الشرق العربي ، في مطلع هذا القرن ، فلأ الأبصار والأسماع ، وشغف به الأدباء ، وأكبرته العلماء ، وقدره السياسيون ، وغدا - خلال خمسين عاماً - كوكباً تروى الى جهانه الأيصار ، وعلماً في الأدب والسياسة ، ومرجعاً في التاريخ والفلسفة ، وحجة في النقد والاجتماع ، وغاية في الترجمة والتحقيق .

ومع إكثاره في الانتاج ، ووفرة ما سال به قلبه وجادت به قريحته فان المعنى الجزل لم يكن يفارق كلمته ، والرأي السديد لم يكن يشوب عبارته ، كأنما كان البيان طوع بنسانه ، والسحر صنعة جنانه ، ولا غرو ، فقد فسج على منوال الأفذاذ من رجال الفكر والقلم ، من قتيه الأسفار بفرائدهم

وتزهو بقلائدهم ، وحاكى أبا اسحاق الصابي^(١) في سجعته ، وفي رقة أسلوبه ، واحتذى ابن المقفع في تسديد انشائه وموازنة معانيه ومبانيه ، وتابع أبا بكر الخوارزمي^(٢) في وثاقة ديباجته وأناقة لغته ، ولاحق بديع الزمان^(٣) في سلامة نثره وسحر بلاغته ، وترسم خطى ابن خلدون في إصابة فكرته ، وحكمة نظرته ، وجلالة تقريره .

بهذه الروح وذلك الهدي ، عانى شكيب ارسلان صناعة الكلمة ، فألان عصيها وأدنى قصيها ، وعانى صناعة القريض فأخضع متون مجوره ،

(١) ابو اسحاق الصابي هو ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الحراني ، نابغة كتاب جيله تقلد ديوان الرسائل والمظالم أيام المطيع لله العباسي ، وتقلد ديوان رسائل معز الدولة الديلمي . فكان ما يصدره عنه من المكاتبات لمضد الدولة سبباً في حقد هذا الاخير عليه . وحينما ملك عضد الدولة قبض عليه سنة ٣٦٧ هـ وسجنه . كان صلباً في دين الصابئة ، وكان يحفظ القرآن ويشارك المسلمين صوم رمضان . وله ديوان شعر وكتاب « التاجي » في أخبار بني بويه ولد سنة ٣١٣ هـ وتوفي سنة ٣٨٤ هجرية .

(٢) ابو بكر الخوارزمي هو محمد بن العباس من خوارزم ، من أئمة الكتاب واحد الشعراء العلماء ، كان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب ، صاحب الرسائل المعروفة استوطن نيسابور واتصل بالصاحب بن عباد . كانت بينه وبين بديع الزمان محاورات متمعة أوردتها أهميات كتب الأدب وهو ابن اخت محمد بن جرير الطبري المعروف . ولد سنة ٣٢٣ هـ وتوفي سنة ٣٨٣ هجرية في نيسابور .

(٣) بديع الزمان هو أحمد بن الحسين بن يحيى الهمداني . أحد أئمة الكتاب له المقامات المشهورة التي احتذاها الحريري في مقاماته ، وكان شاعراً ذاعت شهرته بعد ان دارت بينه وبين أبي بكر الخوارزمي المحاورات والمساجلات المشهورة ، لذلك فقد خلا له الجو بعد وفاة الخوارزمي وتقلب في بلاد خراسان وسجستان ونال الجوائز . من عجائب ما يروى عنه ان اكثر مقاماته ارتجالا وانه ربما يكتب الكتاب مبتدئاً من آخر سطوره الى السطر الاول فيه فيخرجه ولا عيب له ، ولد سنة ٣٥٨ هـ وتوفي مسموماً سنة ٣٩٨ هجرية .

وقصر في فنون القول تصرف الحاذق الخبير، فملاً الدنيا وشغل الناس قرابة نصف قرن .

وكان أمير البيان في صولاته الفكرية وجولاته السياسية من الأوائل الذين حركوا فترة الجمود الفكري والسياسي في الأمة الإسلامية ، وأثار ، لذلك حوله طائفة من أصحاب الأقلام والحكام ، فكان منهم المشيد والحامد ، وكان منهم الناصح والناقد ، وكان منهم المتجني والحاسد . غير ان ذلك لم يفت في عضده ولم يحل بينه وبين المضي في السبيل التي ارتضاها وأخذ نفسه على احتمال مشاقها ، فقد كان رحمه الله صاحب رسالة قبل أن يكون حامل قلم ، وجندي عقيدة قبل أن يكون « محترف أدب » ولعل أول ما يبدو لقارئه ، ومتبوع رسائله وتحقيقاته ومؤلفاته ، انه يستقطر لواعج نفسه حين يكتب ، ويصوغ عواطف قلبه حين يذشء ، ولعل الحقيقة الأولى الكامنة وراء انتاجه الفكري ان الرجل يمتلكه احساس ظاهر بأنه مسؤول عن تراث العربية ومطالب بحراسة موارث الاسلام ، ومنتدب للذب عن قضايا العرب ، ومكلف بالعناية بشؤون المسلمين ، ومن الطبيعي ، ان من تملكه هذا الاحساس وأوتي ما أوتيته أمير البيان من عراقية المحدث ، وفصاحة اللسان ، وعمق المعرفة لا يمكنه إلا ان يكون شكيب ارسلان في سيرته وسريته ، وفي سجايه ومزايه ، وفي اخلاصه وعزيمته .

أسوته :

أمير البيان ، فرع شجرة باسقة ، (آل ارسلان) زينت التاريخ العربي والاسلامي بحكام وأمرء ومجاهدين وقادة وعلماء ، وهي من أعرق بيوتات الامارة في العرب وأعتقها نجاراً وأزكاها مغرساً ، وفيها يستقر معدن من أكرم معادن الحسب الصميم والنسب الأصيل ولم يجانب الحقيقة من قال عن أمرائها : أمرء سيف وقلم وحملة علم وعلم .

مسلط رأسه :

ولد الأمير شكيب في الشويفات (١) ، مركز العائلة الارسلانية التي بناها الأمير مسعود الارسلاني منذ أكثر من ألف سنة ، وأبوه حمود بن حسن . . الذي يرقى نسبه الى الأمير ارسلان المتوفي سنة ١٧١ هجرية ، اما والدته فسيدة شركسية جليية .

نشأته :

ولد الأمير شكيب في بيت الأسرة بالشويفات - حارة الامراء يوم الاثنين اول ليلة من رمضان المبارك سنة ١٢٨٦ هـ الموافق للخامس والعشرين من كانون الاول سنة ١٨٦٩ م . وتعلم مبادئ القراءة والكتابة مع أخيه نسيب على يد معلم القرية حسبما كانت عليه عادة السراة في ذلك الحين ، ثم انتقل الى التعلم على يد استاذ آخر فحفظ جانباً من القرآن الكريم ودخل مع أخيه مدرسة الامريكان في الشويفات فنال قسطاً من العلوم واللغة الإنكليزية ، وفي سنة ١٨٧٩ حينما بلغ العاشرة من عمره دخل مدرسة الحكمة في بيروت و تلقى فيها دروس العربية على الشيخ عبدالله البستاني وفيها تعلم للفرنسية والتركية ، وظهرت تباشير شاعريته وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وكان في سني دراسته مبرزاً مع أخيه على اقرانها .

وبدأت رحلاته الاكتسابية في سنة ١٨٨٩ حينما ذهب الى مصر ، وشرع يجالس المشاهير ، ويتعرف عليهم ويتعرفون عليه عن كثب امثال : الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، والشيخ علي الليثي ، والشيخ علي يوسف (صاحب المؤيد) وحفي ناصيف والسيد احمد محمود ، واحمد زكي باشا ، وطفق رحمه الله وهو في سن الشباب ينشئ علاقات شخصية وأدبية مع اعلام عصره امثال الشاعر اسماعيل باشا صبري ، والشيخ علي يوسف ، وامير

(١) بلدة في لبنان تقع بين مدينتي بيروت وصيدا .

الشعراء احد شوقي ، والبارودي ، وعبدالله باشا فكري ، فسامر بعضهم
وراسل البعض الآخر ، وامتحح او كاتب بعضهم الثالث .

وقلبت به السنون شاعراً وثائراً ومصليها اجتماعياً ، وبحانة لغوياً ،
ورائد فكرة سياسية ، ومهاجراً ، ومترجماً ، ومحققاً ، وسائحاً وهو في
جميع ذلك انسان عين للمروية ، ولسان الأمة الاسلامية وأمير للبيان العربي
في القرن العشرين .

وفي ليلة الاثنين ١٥ محرم سنة ١٣٦٦ هجرية - ٩ كانون الأول سنة ١٩٤٦ م
لقي الأمير شكيب وجه ربه بعد ان اصيب بمرض تصلب الشرايين ، وأفل
النجم الذي اضاه ضياء العرب ، وصمت اللسان الذي ناقض عن قضايا الاسلام .

امير البيان :

جمع شكيب ارسلان الامارتين ، اماره النسب و اماره البيان ، ولئن
كانت الامارة الاولى لا تضارع في الاصالة ، فان الثانية لا تقل عنها مكانة
ولا شيوفاً ، إذ أنه رحمه الله ، عرف بهذا اللقب ، الذي اطلقته عليه الأمة
وارتضاه له للعلماء والادباء والطبقة العليا من المفكرين ، وكان الاختيار
موافقاً لسابقة الامير ومعبراً عما يستحقه من الثناء والتقدير ، وطابقت فيه
« التسمية المسمى » ورافق الحُبْر الحُبْر باجماع الادباء .

وأول من أطلق عليه لقب « أمير البيان » السيد رشيد رضا (صاحب
المنار) رحمه الله ، وهو رفيق جهاده ، واخوه الخير بعلمه وفضله .

ولئن كان « موضوع التسمية هذه » محل جدل بين الباحثين ، ولئن
صدرت بعض الآراء الشاذة عن جدارة الامير بها وحقه بميازمتها فاننا نرى

أن السنة الخلق اقلام الحق ، وأن نور الشمس لا تحجبه الأكف الصغيرة ، ولا تطفئه الافواه العاجزة وأن الله متم نوره ولو كره المشركون .

وسواء أكان مطلق اللقب الأول السيد رشيد رضا أم سواء ، فإنه مما لا شك فيه أن جمهور الادباء وأرباب القلم في الأمة العربية جهروا بهذا اللقب وقابلوا به الامير والأمة والسنين الطوال ، وثبت من اجماعهم اثناء حياة الامير ، ومن حصيلة ما ترك الامير من تراث ، بعد وفاته ، ان اللقب صادف اهله ، والتقدير لاقى محله .

نضاله وأهدافه :

عاش الامير شكيب حياة حافلة ، أشبه ما تكون بحياة المناضلين الاوائل أصحاب العقيدة والقلم ، وفتح عينيه على النور فرأى دولة الاسلام (الدولة العثمانية حينذاك) صائرة الى الافول ، تحيط بها الدول الكبرى من كل جانب وتقتنص اطرافها ، وتنحلب اشداقها شوقاً لا ابتلاع ولاياتها ، ولا تتورع عن الايقاع بينها وبين شعوبها ، والامير مسلم غيور صافي العقيدة ، مشبوب العاطفة ، ينتضي قلمه كل حين ويدافع عن دولة الاسلام ما وسمته الحيلة ، فزراه حينما تطور الخلاف بين ملك السعودية وإمام اليمن حول منطقة عسير يسارع الى رأب الصدع ولمّ الشمل ويقود حملة التوفيق ، لكي يفوت فرصة التدخل واللعب على (الاصابع الاجنبية) ، وزراه حينما اعتدت ايطاليا على ليبيا بطرابلس الغرب ، يشعر ان الوقت وقت سنان لا لسان ، فيتطوع وينذهب بنفسه للالتحاق بالمجاهدين في ليبيا .

غير ان طب الامير في معالجة دولة الاسلام وسلاحه في الذود عن حياضها لم يمنعا عنها خطر الانحلال والخسران . وانتهت الحرب العالمية الاولى على غير ما يشتهي ويروم ، فلم يفقد أعصابه ، ولم يضع صوابه وبادر الى تغيير

الاستراتيجية السياسية ، والتفت نحو الأمة العربية وأولى قضاياها اهتمامه ،
وقدم لهذه القضايا أثنى ما يقدمه انسان : نفسه وفكره وماله وقلبه ، ورأى
بشاقب نظرتيه وصادق فطرتيه ، ان الإبقاء على البلاد العربية إبقاء على عمود
الإسلام ، فأطلق أول دعوة للوحدة العربية وأول فكرة لتأليف الجامعة
العربية . وقال له الملك فيصل الأول : أشهد أنك أول عربي تكلم معي عن
الوحدة العربية ، ويروي الدكتور رثيف ابو اللح ان الامير قال له بعد قليل
من انتهاء الحرب العالمية الأولى (العرب أمة كاملة ، أي أن لها جميع العناصر
التي يقتضيها كيان الأمم من الوجهة السياسية والاجتماعية ، فلها عرق واحد
ولسان واحد وأكثرية دين واحد وتاريخ واحد ، كما أن لها مصالح واحدة
ومنافع واحدة وآمالاً واحدة . ولكن الذي فت في عضد هذه الأمة
وأضعفها وأفقرها وأقصاها عن السير في موكب المدنية والرقى هو تفكك
حلقاتها ، واستعمار الاجنبي لها ، فأنا جندي من جنودها له ثلاثة أهداف جلية
واضحة تمام الوضوح ، الأول : هو الاتحاد ، والثاني : هو التحرر ، والثالث :
هو السير في موكب النهضة والعلم والبحث) .

وانطلق الأمير في نضاله الذي لا يكمل ولا يمل مستهدفاً أغراضه الثلاثة ،
يحدوه بالفعل شعور الجندي ، الجندي المغامر الحكيم ، الذي لا يعبأ بتشريد
ولا يبلين لتهديد ، ولا يهتم للمال ولا لراحة البال . فسافر الى برلين وامتلئ
بها بيتاً ، وراح ينتقل في أوروبا من قطار الى قطار ، لا يلقي عصا التسفار
إلا ليحملها ، ولا ينفذ غبار معركة إلا ليخوض أخرى ، ولا يترك القلم
لحظة إلا ليشعره من جديد .

وانتقل من برلين الى جنيف وشغل فيها مركز أمين عام للمؤتمر السوري
الفلسطيني سنة ١٩٢١ وطالب باسم المؤتمر باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين
والاعتراف بحقها في الاتحاد وعلان إلغاء الانتداب فوراً . واختارته اللجنة
التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني ليكون عضواً في الوفد العربي الذي يدافع

عن قضايا العرب أمام جمعية الأمم ، فحمل الأمانة ، وأدى الرسالة ثم سافر الى امريكا الشمالية وقصد الاتحاد السوفياتي تلبية لدعوة رسمية وأدى فريضة الحج ، ورحل الى الأندلس (اسبانيا) وأصدر مجلة باللغة الفرنسية في جنيف اسمها « الأمة العربية » ليدرج فيها جهود العرب ومحاولاتهم للتحرر والاستقلال وليعرض قومه على الكفاح والنضال ، وقابل مع صديقه احسان الجابري موسوليني ، وباحثه في موضوع القضية الطرابلسية ، وتوصلت محادثاتها الى نتائج إيجابية هامة وأنكب على كتابة البحوث السياسية وتنظيم المذكرات والاحتجاجات وإذاعة النداءات ، وتوزيع كل ذلك على وفود جمعية الأمم ورجالها ثم خطر له سنة ١٩٣٦ أن يجمع ما كتبه في تلك الميادين فوجد أنه يقع فيما يقارب العشرين مجلداً وأنه يتمنر عليه طبعه فأهداه جميعاً الى نظارة الخارجية السورية .

وفي سنة ١٩٣٦ أرادت الحكومة السورية أن تعبر عن تقديرها لمكانة شكيب ، ونضاله في سبيل وطنه وامته فاخترته رئيساً للمجمع العلمي العربي ، ولقد كان هذا الاختيار يصادف هوى في نفس الامير ورغبة في صدره لأنه كان يمتاز بعضوية المجمع لولا ان الظروف السياسية اقتضت اعتذاره عن قبول الرئاسة احتجاجاً على فرنسا التي تنكرت للمعاهدة المعقودة مع سوريا سنة ١٩٣٦ ورفض القيد المعنوي واختار الحرية والنضال من أجل البلاد .

عودته الى الوطن ووصيته الأخيرة :

عاد شكيب الى وطنه ، ورأى بيروت بعد الهجرة الطويلة في الثلاثين من تشرين الأول سنة ١٩٤٦ ، وسعد بمشاهدة وطنه حراً مستقلاً طليقاً من اغلال الاحتلال والاستبداد ، وتحرك لبنان والبلاد العربية للقاء البطل بعد عودته الى العرين ، ومكث فترة يزور ويزار ويجهد نفسه بالرد على الرسائل التي كانت ترد به بكثرة . وتحالف على الرجل تصلب الشرايين والنقرس والرمل في الكليتين

وثقل الثأنين عاماً ، فلم تطل مقاومته وعجزت يد البشر وأقبلت يد القدر
في ٩ كانون اول سنة ١٩٤٦ .

وكان آخر ما قاله للاستاذ عبدالله المشنوق ، حينما التقى به قبل موته
بأيام : أحمد الله عز وجل الذي سهل لي ان أفارق الحياة على أرض هذا
الوطن الذي أحببته ، وانا سعيد ان ادفن في تربة طاهرة لا ترفرف فوقها
راية اجنبية ، وانا سعيد ان ألقى وجه ربي الكريم ، فأعيد هذه الامانة الى
بارئها بعد أن تحققت احلام طفولتي في هذه الجامعة العربية حرسها الله .
وسأخبر رفاقي في الجهاد بأن تضحياتهم لم تكن عبثاً .

ونحدرت من عيني الأمير دمعتان ، ونهض واقفاً وجذب يد الاستاذ
المشنوق وقال له : لي وصية واحدة أود ان أوصي بها ، فهل تعدني بأن
تنقلها الى العالم العربي بعد وفاي ؟

فأجابته : لك العمر الطويل ان شاء الله .

فقال شكيب : لا بل تعدني بنقل الوصية .

قال : نعم .

وهنا طوفه شكيب بذراعيه المرتجفتين وقال بصوت كادت تخنقه
العبارات : أوصيكم بفلسطين .

لماذا تأخر المسلمون :

قصة الرسالة ، عرف العالم الاسلامي « شكيب ارسلان » أميراً للبيسان
ولساناً ينقل بصفاء ودقة كلمة الاسلام ، وجندياً على اجل العربية والعروبة ،
وذلك من خلال مقالاته ومؤلفاته ومساجلاته وترجماته وتحقيقاته ، واشترأبت
اليه الاعناق في كل معضلة ، وافتقده المصلحون الاجتماعيون ، والزعماء

السياسيون أمام كل مشكلة . وفي شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م ارسل الشيخ محمد بسموني عمران من « جاوة » الى صاحب مجلة المنار السيد رشيد رضا رسالة يوفي فيها الأمير شكيب حقه من الثناء والتقدير على خدمته للاسلام والمسلمين ويقترح عليه ان يبين لقراء المنار اسباب ما صار اليه المسلمون من الضعف والانحطاط والذل ، وان يبين اسباب رقي اهل اوروبا وامريكا واليابان ، وما إذا كان يمكن للمسلمين مجاراة هؤلاء في سباق الحضارة مع المحافظة على دينهم الخفيف ، فأحال السيد رشيد رضا ، الرسالة الى الأمير ويظهر ان الرسالة حركت في نفس الأمير كوامن واثارت شؤناً وشجوناً وأن السؤال كان يلح في خاطره والاجابة كانت مضمرة في تلافيف ذهنه الوقاد والمنشغل ابدأ بالشؤون الاسلامية .

ثلاثة أيام :

ولم يكذب ينتهي من رحلته الى الاندلس ، حتى انكب على اعداء الجواب خلال ثلاثة أيام وانفعالات الزيارة الى بلاد المجد المفقود وعواطفها ما زالت مشبوبة في نفسه ، ونشر الكتاب اول ما نشر في مجلة المنار ثم طبعه في كتيب على حدة وقدم له السيد رشيد رضا في أواخر سنة ١٩٤٠ بمطبعة المنار وحلّاه ببعض العناوين ، وأعيد طبع الكتاب مرات ، وتناقله العالم الاسلامي بلهفة وشوق وتقدير ، لأنه وجد فيه اجابات صريحة واضحة على تساؤلات كانت تلح في الضمائر وتمتلج في الخواطر . ويقول السيد رشيد رضا عن الكتيب الرسالة :

سارت بها الركبان تطوي نفنفاً فنفنفاً وسبباً فسبباً

أثر الرسالة :

لا شك ان الرسالة طارت في أرجاء العالم الاسلامي يجناحي التوفيق

والبراءة ، وكانت عود الثقب الصغير ، الذي أضاع الطريق المظلم : وحدد المعالم المبهمة وحق للسيد رشيد رضا ان يقول عنها انها (اضطربت بها بعض دول الاستعمار ، وزلزلات زلزلاً شديداً ، حتى قيل لنا إنها أغرت حكومة سوريا بمنع نشرها فيها وهي أحق وأهلها فانفردت بهذه العداوة للاسلام دون من أغروها بها) وقابلت فرنسا الرسالة بمحاقة فنمت دخولها الى الجزائر ، وحظرت على الناس قراءتها كأنما هي وباء ، وجعلت عقوبة لمن يطالعها .

أما العالم الإسلامي ورجاله ، فقد رحبوا بها ، وافتوا الأنظار اليها وحضوا على نشرها وتمميمها ، واقترح الاستاذ محمد تقي الدين الهلالي في كلية ندوة العلماء بالهند تعميم نشر الكتاب مصححاً مضبوطاً مشكولاً ، ليستوفي في مطالعته الخاصة والعامة وان يسهم الاغنياء في توزيع نسخه ، وان يدرسه المدرّسون للطلبة وان يخطب به الخطباء مدة طويلة وان يترجم الى اللغات الأخرى .

الرسالة في الميزان :

إن ظروف إنشاء الرسالة ، وكونها جواباً على سؤال طرح في مجلة المنار وتحبيرها في مدة وجيزة جداً - ان صح القول بأنه ثلاثة أيام - واعتقاد الأمير فيها على الذاكرة وخلاصة التجارب دون المذاكرة والمراجع دفعت بعض المفكرين الى انتقاد جرمها الصغير والإكثار فيها من وجوه المقارنات بين المسلمين بالأمس واليوم ، وصياغتها بالأسلوب الصحافي والخطابي العاجل ، حق ان الاستاذ احمد الشرباصي يقول عنها - وقوله حق وصدق - : « انها أشبه بخطبة طويلة النفس فيها من الاثارة والتحميس اكثر مما فيها من البحث والاقناع » .

ومها قيل في الرسالة فقد كانت بذت ساعتها ، وضرورة من ضرورات عصرها ، أيقظت الأمة ، وأزالت الحجب عن أعينها وحركت العزائم نحو

الإصلاح ودلت بصدق على كثير من مواطن الضعف والانحلال . ولا يقبل انتقادها بكثرة الآيات القرآنية التي اشتملت عليها لأن القرآن دستور المسلمين والمصدر الأول من مصادر التشريع لديهم واللجوء الى آياته وتبيين تحذيراته ووصاياه في موضوع معالجة أسباب تأخر المسلمين من اللوازم الأساسية والضرورات المنطقية لنجاح الموضوع .

كتبه ومنشوراته حسب تسلسلها الزمني :

١ - باكورة : مجموعة قصائد شعرية طبعت بالمطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٨٧ م .

٢ - الدرة اليتيمة : حكم لمبدالله بن المقفع طبعت مصححة بقلم الأمير في المطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٩٣ م .

٣ - رواية آخر بني سراج - تأليف شاتوربيان . عربيه أمير البيان وألحق به ثلاثة أجزاء :

أ - خلاصة تاريخ الأندلس الى سقوط غرناطة - بقلمه .

ب - أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر . نشره أمير البيان مؤلف مجهول شهد وقائع سقوط الأندلس بنفسه .

ج - أثاره تاريخية رسمية - أربعة كتب سلطانية اندلسية صادرة من أبي الحسن علي بن أبي النصر بن أبي الأحمر والد أبي عبدالله آخر ملوك غرناطة . طبع بمطبعة الاهرام سنة ١٨٩٧ .

٤ - اعمال الوفد السوري الفلسطيني: يضم البيانات والمذكرات والمطالب التي قدمها أمير البيان وشاركه في وضعها احسان الجابري وميشال لطف الله وسليمان كنعان . طبع بالمطبعة السلفية - بكانون الثاني سنة ١٩٢٣ م .

٥ - حاضر العالم الاسلامي - تأليف الكاتب الاميركي لوتروب ستودارد ترجمه الى العربية الاستاذ عجاج نويض وقدم له الحواشي أمير البيان فجاءت تعليقاته وحواشيه أربعة أضعاف الكتاب الأصلي واشتهر الذيل والحاشية حتى أصبح الاصل يعوف بها لدى قراء العربية . طبعته المطبعة السلفية سنة ١٩٢٥ م .

٦ - اتقول فرانس في مبادله - تأليف جان بروسون . ترجمه وقدم له وعلق عليه أمير البيان وطبع بالمطبعة العصرية سنة ١٩٢٦ م .

٧ - لماذا تأخر المسلمون - ولماذا تقدم غيرهم . طبع في مطبعة المنار سنة ١٩٣٠ م .

٨ - الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى اقدس مطاف . كتاب تحدث فيه أمير البيان عن رحلته لاداء فريضة الحج . طبع في مطبعة المنار سنة ١٩٣١ .

٩ - محاسن المساعي في مناقب الامام أبي عمرو الاوزاعي . نشره أمير البيان وقدم له وعلق عليه دون ان يذكر اسم مؤلفه . وهو من تأليف الشهاب أبي العباس احمد بن محمد بن أبي بكر الشهير بابن زيد الموصلي الحنبلي المتوفى بدمشق سنة ٨٧٠ هجرية . طبع في مطبعة عيسى البايي الحلبي سنة ١٩٢٣ م .

١٠ - تاريخ غزوات العرب - في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط . وهو أول تأليف بالعربية في معناه وموضوعه . طبع في مطبعة عيسى البايي الحلبي وتاريخ مقدمته ربيع الاول سنة ١٣٥٢ .

١١ - روض الشقيق في الجزل الرقيق . وهو ديوان شقيق أمير البيان الأمير نسيب ارسلان جمعه وعلق عليه وصدره بترجمة للشاعر وذيله بنسب العائلة الارسلانية . طبع في مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٥ م .

- ١٢ - ديوان الامير شكيب ارسلان . طبع بمطبعة المنار سنة ١٩٣٦ م ،
وقدم له خليل مطران .
- ١٣ - شوقي أو صداقة أربعين سنة ذكريات الأمير عن شوقي أمير
الشعراء . طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٩٣٦ م .
- ١٤ - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية . دراسة اندلسية تتناول
الجغرافية والتاريخ والتراجم والعلوم والفنون والآداب . صدر منه ثلاثة
اجزاء وطبع أول جزء منه بمطبعة الحلبي سنة ١٩٣٦ م والثاني سنة ١٩٣٩ م
والثالث سنة ١٩٤٧ م . وهو في الأصل مرسوم على ثمانية أجزاء ، ولم يعرف
بعد ما إذا كانت تتمته ما زالت موجودة أم انها فقدت .
- ١٥ - السيد رشيد رضا (أو اخاء أربعين سنة) . طبع بمطبعة ابن
زيدون بدمشق سنة ١٩٣٧ م .
- ١٦ - النهضة العربية في العصر الحاضر . طبع في مطبعة دار النشر سنة
١٩٣٧ م . وهو كتيب أصله محاضرة القيت في دار المجمع العلمي العربي .
- ١٧ - عروة الاتحاد بين أهل الجهاد . مجموعة مقالات نشرت في صحف
مختلفة ، جمعها ادارة جريدة العالم العربي التي كانت تصدر في بونس ايرس .
قدم له الدكتور تقي الدين الهلالي . وصدر منه الجزء الأول سنة ١٩٤١ م .
- ١٨ - « رسائل الصابي » لأبي اسحاق الصابي ، نشرها أمير البيان ،
وعلق عليها حواشي نافعة .



ولأمير البيان منشورات أخرى صغيرة ، (بيان للأمة العربية)
و (لانحقي الى المسيو جوفنيل) وهي في الرد على الافتراءات التي وجهها

اليه بعض زملائه في النضال السياسي . و (الوحدة العربية) وهو رسالة صغيرة و (رسالة البلاشفة) و (رسالة رحلة المانية) و (رسالة عن ضرب الفرنسيين لدمشق) بالإضافة الى عشرات الآلاف من المذكرات والرسائل والمقالات والمدونات السياسية التي يطول المقام بذكرها وحبذا لو ان الدولة اللبنانية عمدت الى تكليف لجنة خاصة من الأدباء والناشرين وبعض آل ارسلان لمتابعة انتاج أمير البيان في تركته التي تملأ عشرات الصناديق المهمة ، وتفسق هذا الانتاج واخرجه الى العالم العربي وفاء لذكرى الرجل العظيم ، وتقديراً لأدبه وخدمة للثقافة العربية وللبنان الذي ينتمي اليه أمير البيان .

أقوال الأعلام في أمير البيان :

● لو تفرغت طائفة من حملة الاقلام جم عديدها ، فيأضه قرائنها ، فيما يشاء الله من مسائل السياسة والاجتماع والأدب ، ومباحث التاريخ والاخلاق ، لكتابة ما كتب من تلك الفصول والمقالات لتعذر عليها أن تأتي مجتمعة بما أتى به ذلك المعلم المفرد .

● وإذا كان قد رضي لنفسه في الشعر ان يكون المقل الجيد ، فلا مشاحة في انه انفرد بين المترسلين بأنه المكثر الجيد .

خليل مطران

● .. اميري الذي أقام أهل الادب والبيان عرشاً لا تدانيه عروش ذوي التاج والصولجان ، وما ذلك إلا لأنه اصبح نصير العربية وخادم الاسلام .

أحمد زكي باشا

● أحسن تلاميذي وأقربهم إليّ أمير شكيب ارسلان .

الشيخ عبدالله البشقاني

● شكيب ارسلان أعظم شخصية عربية . كان لسان الاسلام ومدرة العرب. واحسب ان مقالاته لو جمعت لجا منها كتاب في ضعف حجم الاغاني.

الشيخ علي الطنطاوي

● ملأ ذكره العالم الاسلامي وملأت كتاباته الصحف العربية في المشرق والمغرب وعرف ببلاغة الأسلوب واشراق الديباجة حتى سمي بحق أمير البيان.

الاستاذ على الفاياتي

● أمير البيان ، ومدرة بني معد وعدنان وسائر بني قحطان .

السيد رشيد رضا

● حجة الأدب وسيد كتاب العصر .

مصطفى صادق الرافعي

● « اقرأه فأشعر أني في حضرة جبار من جبابرة البلاغة ، تتقاذف أنامله الطود. كما تتداول الحصاة، ويمج قلمه الانداء حيناً والامواج حيناً ، وتتسارع المعاني من قريحته، والمباني من موسوعته، متزاحمة على سنى يراعه، منقادة اليه، لا يكبد فيها ذهنًا، ولا يستحضر لفظًا، ولا يعمل مهازأً ، ولا يخشى عثاراً ، فهو يرسل الكلام على سجيته ارسالاً عجيبيًا ، وقد لبسته افكاره لا قصيراً ولا فضفاضاً بل منفصلاً أحسن تفصيل وأكمله ، مع انه لا يعاني في ذلك قياساً ولا مراجعة يأتيك بالصفحة ، تترقرق فيها الألفاظ كالغدير الصافي ، فتخاله يخاطبك بلغة عامية ، هي من الفصيح البارع الفصاحة ، فلا تكاد تفرغ منها حتى يسبح بصرك في ظلال ممدودة يسمو منها الى سفح أو قمة أو خيمة هي قطعة مواارة بالجميل البليغة ، أو فقرة كأداء بالمفردات العويصة

او شواهد شعرية زاهية بالحكم ، زاهرة بالامثال ، وهو في كل ذلك لا يرمي إلى إراحتك أو إلى اعنائك ، بل يضع الكلمة في موضعها ، مخلوقة لملها ، ومخلوق محلها لها ، كما تنجذب الأشياء بطبيعتها إلى شكولها ، وتلتزم الكهارب مراكزها من نواتها .

رشيد سليم الخوري



٢ - صاحب المنار : الامام السيد محمد رشيد رضا

ولادته ونشأته :

ولد الإمام السيد محمد رشيد رضا في ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ في قرية « القلمون » اللبنانية ، الواقعة جنوبي طرابلس الشام .

ونشأ في بيت معروف ومشار اليه بالعلم والرياسة والارشاد ، فقد بنى جده الثالث مسجد القلمون ، وأنعم عليه السلطان العثماني في حينه ببراءات الامامة والخطابة في المسجد ، وتسلسلت هذه البراءات حتى آلت الى الشيخ رحمه الله .

وأشار رحمه الله في كتابه « المنار والازهر » الى مكانة أسرته فقال : « وعهدي بأكبر علماء طرابلس وحكامها ووجهائها يفتشون دارنا في ايام الصيف ، ويقيمون فيها أياماً » .

مدرسته ودراسته :

تلقى علومه الاولية في كُتَّاب قريته « القلمون » وكانت هذه العلوم : قراءة القرآن والخط والحساب . ثم انه دخل « المدرسة الرشدية » في طرابلس وتلقى فيها مبادئ الصرف والنحو والحساب والجغرافيا وعلم الحال - العقائد

والعبادات - واللغة التركية . ثم التحق بالمدرسة الوطنية الاسلامية ودرس
العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية على استاذ
العلامة الشيخ حسين الجسر الازهري ، الذي أسس المدرسة وحدد لها
برنامجها التجديدي .

وقال عن نفسه : « كنت شديد العناية بمطالعة كتب الأدب وكتب
التصوف ، وكان اعجب كتب التصوف إليّ « احياء علوم الدين » فكنت
أكثر من مراجعته وكان له أكبر التأثير في ديني واخلاقي وعلمي وعملي »
وقال : « ونظمت الشعر قبل قراءة العلوم العربية ، وكنت اشتهر به » .

ومن مشايخه - فضلا عن الشيخ حسين الجسر - :

- العلامة الشيخ محمود نشابة ، أخذ عنه الحديث وفقه الشافعية .
- العلامة الشيخ عبد الغني الرافعي ، أخذ عنه علوم الحديث واستفاد منه
في الأدب والتصوف .
- العلامة المحدث العابد الشيخ ابو المحاسن محمد القاوقجي الكبير ، أخذ
عنه كتابه في « الاحاديث المسلسلة » . وبعض كتابه « المعجم الوجيز » .
- وزامل من الاقران الاستاذ محمد الحسيني ، والشيخ محمد كامل ابن الشيخ
عبد الغني الرافعي ، والعلامة الناسك الزاهد الشيخ عبد الباقي الافغاني ، من
اكبر علماء بلده في المعقولات والفلسفة . والاستاذ الشيخ عبد الحميد المغربي ،
والاستاذ الشيخ محمد رحيم ، والشيخ صالح الرافعي ، والعلامة الفقيه الشاعر
الشيخ اسماعيل الحافظ ، والسيد عبد الحميد الزهراوي .

سفره الى مصر :

وفي أوائل رجب سنة ١٣١٥ ، سافر إلى مصر ، وعزم على إنشاء
صحيفة إسلامية فيها، واعتذر من السيد عبد القادر القبانى ، صاحب جريدة

« ثمرات الفنون » ، ولم يقبل تولي رئاسة تلك الجريدة ، لعدم توفر مناخ حر يساعده فيما عزم عليه من الحملة الاصلاحية . « وادرك بصدق فراسته وبعد نظره أن العصر الذي يستقبله إنما هو عصر إصلاح ، ودوره فيه دور إيقاظ ، وأن الاسلام في حاجة ملحاح إلى من يمثل فيه هذا الدور » .

اتصاله بالشيخ محمد عبده وأصداره « المنار » :

وفور وصوله الى مصر اتصل بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وكان قد تعشقه ، وتعشق معه المنهج الاصلاحى الذي يتبعه هو والاستاذ السيد جمال الدين الافغانى ، وكان من القراء المدمنين على جريدتها «العروة الوثقى» منذ طلبه العلم في طرابلس الشام . كما أنه حظي باستقبال الشيخ محمد عبده ومجالسته لدى زيارته للبنان ، ومروره بطرابلس ، وتداول معه الرأي في منهاج الجريدة التي كان عازماً على إصدارها وفي اسمها؛ وذكر له عدة اسماء ، ومنها المنار ، الوي وقع عليه الاختيار . ويقول رحمه الله : « وكتبت فاتحة العدد الاول بقلم الرصاص في جامع الاسماعيلى المجاور لدار الاستاذ بالناصرية ، وذهبت بها الى داره فعرضتها عليه فاعجبته جد الاعجاب » .

وجملة القول أنه ، والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، كانا «كروح واحدة في جسدين» يتكاشفان ويتساران ، وينسقان كل مع الآخر أوجه النشاط والعمل والاصلاح والكتابة .

وكان الشيخ رشيد أول من أطلق على الشيخ محمد عبده لقب « الاستاذ الامام » .

ويقول الأمير شكيب ارسلان : « انه اتخذه إماماً وعاشره لزاماً وأنشأ مجلة المنار لبث أفكاره في الاصلاح الدينى والاجتماعى ، والإيقاظ العلمى والسياسى » .

وهكذا بلغت « المنار » في مدة وجيزة من نفوس المسلمين مبلغاً عظيماً ، وأثرت تأثيراً مباشراً في التوعية بشكل عام ، وفي بذر بذور للنهضة الفكرية والسياسية بشكل خاص ، وصارت المجلة الاسلامية الأولى في العالم الاسلامي ، يحتج بها ويرجع اليها ، وأصبحت هي « موئل الفتيا في التأليف بين الشريعة والاوزاع المصرية الجديدة » .

وآبى الشيخ رشيد رضا على إصدار المنار من سنة ١٣١٥ إلى سنة ١٣٥٤ ، بدون كلل ولا ملل ، وأودع فيها خلاصة تجاربه وذوب فكره ، وفرائد علومه ، ولوامع فتاويه ، حتى ان المستشرقين عدوا المنار « معلمة اسلامية منقطعة النظير ولا يستغني مسلم عنها » .

وفاته :

وفي الثالث والعشرين من جمادى الاولى ١٣٥٣ هـ الموافق للثاني والعشرين من آب سنة ١٩٣٥ م اسلم الامام السيد محمد رشيد رضا الروح وهو في السيارة عائداً من السويس الى مصر ، تقمده الله بسابغ رحمته .

مؤلفاته :

كان رحمه الله ، من فحول علماء هذه الأمة ، ولقد صدر عن فكره وقلمه من الآثار المفيدة ما يندر صدوره عن العلماء في هذا العصر المتأخر .

وهذا احصاء تأليفه ، كما أوردها الأمير شكيب ارسلان في كتابه عنه :

١ - تفسير القرآن الكريم ، الشهير « بتفسير المنار » وصل فيه إلى الآية الأولى بعد المائة من سورة يوسف ، من عجائب الاتفاق أن نصها : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث » .

٢ - « التفسير المختصر المفيد » . أراد له أن يكون كالمثنى لتفسير المنار طبع منه بعض الأجزاء .

- ٣ - مجلة المنار وفيها العديد من مقالاته وتحليلاته وتوجيهاته وأفكاره الإصلاحية وزوده على المراسلات وتعليقه على الأحداث ، وفتاويه القيمة^(١) .
- ٤ - تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . ثلاثة اجزاء .
- ٥ - نداء للجنس اللطيف (حقوق النساء في الاسلام) وقد ترجم إلى بعض اللغات .
- ٦ - الوحي الحمدي ، وقد ترجم ايضاً .
- ٧ - المنار والازهر ، وفيه ترجم لنفسه .
- ٨ - ترجمة القرآن وما فيها من المفاصد .
- ٩ - ذكرى المولد النبوي .
- ١٠ - مختصر ذكرى المولد .
- ١١ - الوحدة الاسلامية . وطبعت باسم « محاورات المصلح والمقلد » .
- ١٢ - يسر الاسلام وأصول التشريع العام .
- ١٣ - الخلافة ، أو الامامة العظمى .
- ١٤ - الوهابيون والحجاز .
- ١٥ - السنة والشيعة ، ظهر منه الجزء الاول .
- ١٦ - خطاب عام فيما يجب على المسلمين لبیت الله الحرام .
- ١٧ - مناسك الحج واحكامه وحكمه .
- ١٨ - المسلمون والقبط .

(١) جمعت فتاويه وطبعت في بيروت فبلغت سبع مجلدات .

- ١٩ - تفسير الفاتحة والكوثر والكافرون والاخلاص والموزنين ، في مجموعة تشتمل على تفسير سورة العصر للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .
- ٢٠ - رسالة في الصلب والفداء .
- ٢١ - حقيقة الربا . طبع منها ست وتسعون صفحة فقط .
- ٢٢ - مساواة المرأة بالرجل ، وهي مناظرة مع الدكتور محمود عزمي في الجامعة المصرية .
- ٢٣ - رسالة في حجة الاسلام الغزالي .
- ٢٤ - المقصورة الرشيدية ، عارض فيها المقصورة الدريدية .
- ٢٥ - رسالة في التوحيد على طريقة السؤال والجواب .
- ٢٦ - الحكمة الشرعية في محاكمة « القادرية » و « الرفاعية » .
- رسالة ألفها اثناء طلب العلم رداً على السيد أبي الهدى الصيادي فيما تعرض به للشيخ عبد القادر الجيلاني .
- ولو لم يكن له من المؤلفات إلا تلك المجلدات الخمسة والثلاثين من المنار لكان ذلك كافياً ليكون نوراً يسمى بين يديه في الدنيا والآخرة .



المقدمة

على هذه الرسالة لفقيد الاسلام الاستاذ
الحجة السيد رشيد رضا قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ^(١) .
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنْفُسِهِمْ^(٢) .
إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
يَقُومُ الْأَشْهَادُ^(٣) .

(١) سورة الرعد ١١ .

(٢) سورة الانفال ٥٣ .

(٣) سورة غافر ٥١ .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ حُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ (١) .

كتب إليّ تلميذي المرشد الشيخ محمد بسيوني عمران إمام مهر اجا جزيرة
سمبس برنيو (جاوه) كتاباً يقترح فيه على أخينا المجاهد أمير البيان أن
يكتب للمنار مقالاً بقلمه السيلال في اسباب ضعف المسلمين في هذا العصر
وأسباب قوة الافرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة . وقال
في كتاب آخر إنه قرأ ما كتبناه في المنار وتفسيره من بيان الأسباب في
الأمرين ، وما كتبه الأستاذ الامام في مقالات (الاسلام والنصرانية مع العلم
والمدنية) في الموضوع ، وإنما غرضه أن يكتب في ذلك أمير البيان بقلمه
المؤثر المعبر عن معارفه الواسعة ، وآرائه الناضجة ، لتجديد التأثير في أنفس
المسلمين بما يناسب حالهم الآن ، لتنبه غافلهم ، وتعلم جاهلهم وكبت
خاملهم ، وتنشيط عاملهم . وبني الاقتراح على الأسئلة الآتية التي صارت
مثار شبهة على الدين عند غير علمائه ، فهو يعلم مما سمعه من دروسنا في مدرسة
الدعوة والارشاد وبما كتبناه مراراً في المنار والتفسير ان كتاب الله تعالى
حجة على ادعاء الإسلام والايان وليسوا هم حجة عليه .

اقترحت هذا الاقتراح لجل أخي ووليي الأمير شكيب على كتابة شيء
مثل هذا للمنار ، وأنا الذي أنصح له دائماً بتخفيف أحمال الكتابة عن عاتقه
لكثرة ما يكتب لصحف الشرق والغرب وللأصدقاء غيرهم ، فأرسلت إليه
كتاب الشيخ محمد بسيوني عقب وصوله إلي ، فأرجأ الجواب عنه لكثرة

(١) سورة الحجرات ١٥ .

الشواغل إلى أن عاد من رحلته الأخيرة إلى اسبانية وقد أثرت في نفسه
مشاهد حضارة قومنا العرب في الأندلس والمغرب الأقصى ، وشاهد تأثير
محاولة فرنسة تنصير شعب البربر في المغرب تمهيداً لتنصير عرب افريقية
المرزوثين باستعبادها لهم ، كما فعلت اسبانية في سلفهم في الأندلس - فكتب
الجواب منفعلاً بهذه المؤثرات ، فكان آية من آيات بلاغته ، وحجة من حجج
حكيمته ، لعلها أنفع ما تفجر من ينبوع غيرته ، وانبجس من معين خبرته ،
فسال من أنبوب براعته ، جزاء الله خير ما جزى المجاهدين الصادقين .

محمد رشيد رضا



كتاب الشيخ محمد بسيوني عمران

حضرة مولاي الاستاذ المصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار
تفعمني الله والمسلمين بوجوده العزيز آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فان من قرأ ما كتبه في المنار
وفي الجرائد العربية العلامة السيامي الكبير أمير البيان ، الأمير شكيب
ارسلان ، من مقالاته الرنانة المختلفة المواضيع ، عرف انه من أكبر كتاب
المسلمين المدافعين عن الإسلام ، وانه أقوى ضلع للمنار وصاحبه في خدمة
الإسلام والمسلمين ، واني أرجو من الله تعالى أن يطيل بقاءهما الشريف في خير
وعافية - كما أرجو من مولاي الاستاذ صاحب المنار أن يطلب من هذا الأمير
الكاتب الكبير أن يتفضل علي بالجواب عن أسئلتني الآتية وهي :

(١) ما أسباب ما صار اليه المسلمون (ولا سيما نحن مسلمو جاوة وملايو)
من الضعف والانحطاط في الأمور الدنيوية والدينية معاً ، وصرنا أذلاء لا حول
لنا ولا قوة ، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز :

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (١) .

(١) المنافقون : من الآية ٨ .

فأين عزة المؤمنين الآن ؟ وهل يصح لمؤمن أن يدعي انه عزيز وإن كان ذليلاً مهانئاً ليس عنده شيء من أسباب العزة إلا لأن الله تعالى قال :

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .

٢) ما الأسباب التي ارتقى بها الأوروبيون والأمريكانيون واليابانيون ارتقاء هائلاً ؟ وهل يمكن أن يصير المسلمون أمثالهم في هذا الارتقاء إذا اتبعوهم في أسبابه مع المحافظة على دينهم « الإسلام » أم لا ؟

هذا والمرجو من فضل الأمير أن يبسط الجواب في المنار عن هذه الاسئلة وله وللستاذ صاحب المنار من الله الأجر الجزيل .

محمد بسيوني عمران

سنبس بورنيو الغربية في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٤٨

* * *

هذا نص كتاب السائل ويتلوه جواب الأمير ، وقد وضعنا له بعض العناوين ، لأنها كمحطات الطريق للسالكين وعلقنا عليه قليلاً من الحواشي المفيدة للقارئ ، كما فعلنا ذلك في كتاب الاسلام والنصرانية لشيخنا الاستاذ الامام رحمه الله .

* * *

ملاحظة : الحواشي التي من قلم العلامة السيد رشيد رضا رحمه الله عليها التوقيع بحرف (ر) ، والحواشي المضافة الى هذه الطبعة من قلم المؤلف عليها التوقيع بحرف (ش) .

جواب الامير شكيب ارسلان

إن الانحطاط والضعف اللذين عليهما المسلمون شيء عام لهم في المشارق والمغرب لم ينحصر في جاوة وملايو ، ولا في مكان آخر ، وإنما هو متفاوت في دركاته ، فمنه ما هو شديد العمق ، ومنه ما هو قريب الغور ، ومنه ما هو عظيم الخطر ، ومنه ما هو أقل خطراً .

وبالاجمال حالة المسلمين الحاضرة ولا سيما مسلمي القرن الرابع عشر للهجرة أو العشرين للمسيح ، لا ترضي أشد الناس تحمساً بالإسلام وفرحاً بحزبه ، فضلاً عن غير الأحسبي من أهله .

إن حالتهم الحاضرة لا ترضي لا من جهة الدين ولا من جهة الدنيا ، ولا من جهة المادة ولا من المعنى . وإنك لتجد المسلمين في البلاد التي يساكنهم فيها غيرهم متأخرين عن هؤلاء الاغيار لا يساكنهم في شيء إلا ما نزر ، ولم أعلم من المسلمين من ساكنهم أمم أخرى في هذا العصر ولم يكونوا متأخرين عنهم إلا بعض أقوام منهم ، وذلك كمسلمي بوسنه مثلاً فإنهم ليسوا في سوي مادي ولا معنوي أدنى من سوي النصارى الكاثوليكين ، أو النصارى الارثوذكسيين الذين يحيطون بهم ، بل هم أعلا مستوى من

للفريقين^(١) . وكثير من مسلمي الروسية الذين ليس المسيحيون الذين يحاورونهم أرقى من الطوائف المسيحية التي تساكنهم ، ولا خلاف في أن مسلمي الصين إجمالاً على تأخرهم هم أرقى من الصينيين البوذيين ، هذا إذا كانت النسبة بين الفريقين باقية كما كانت قبل الحرب العامة ، وفيما عدا هذه الأماكن نجد تأخر المسلمين عن مسايرة جيرانهم عاماً مع تفاوت في دركات التأخر .

ويقال ان العرب في جزيرة سنغافورة هم أعظم ثروة من جميع الأجناس التي تساكنهم حتى من الانكليز أنفسهم بالنسبة إلى العدد ، ولا أعلم مبلغ هذا الخبر من الصحة ، ولكنه على فرض صحته ليس بشيء يقدم أو يؤخر في ميزانية المسلمين العامة .

ولا إنكار ان في العالم الإسلامي حركة شديدة ، ومخاضاً عظيماً شاملاً للأمر المادية والمعنوية ، وبقظة جديدة بالإعجاب ، قد انتبه لها الأوروبيون وقدروها قدرها ، ومنهم من هو متوجس خيفة مغبتها، لا يخفي هذا الخوف من تضاعيف كتاباتهم ، إلا أن هذه الحركة إلى الأمام لم تصل بالمسلمين حتى اليوم إلى درجة يساؤون بها أمة من الأمم الأوروبية أو الأميركية أو اليابان .

فبعد أن تقرر هذا وجب أن نبحث في الأسباب التي أوجدت هذا التقدم

(١) كانوا أعلى مستوى من الكاثوليكين والارثوذكسيين من الجهة المادية بسبب ان ٨٠ في المائة من أراضي بوسنة كانت ملكاً للمسلمين وكان الفلاحون فيها جميعاً من السربيين فمضد بضع عشرة سنة سنت حكومة بلغراد قانوناً صدقه مجلس نوابها نزعته بموجب هذه الاملاك من أيدي مالكيها المسلمين وسلمتها إلى الفلاحين السربيين غير معوضة على المسلمين إلا ببديل بخس فأصبحوا لا يملكون في بوسنة إلا ٢٥ في المائة من الاراضي فسقطت أهميتهم المادية من ذلك الوقت . أما حالتهم الادبية فمرضية إلى اليوم لا يقال انها دنيا بالقياس إلى جيرانهم (ش) .

في العالم الإسلامي بعد أن كان منذ ألف سنة هو الصدر المقدم ، وهو السيد
المرهوب المطاع بين الأمم شرقاً وغرباً ، فقبل أن نبحت في أسباب
الارتقاء فنقول :

أسباب ارتقاء المسلمين الماضي :

إن أسباب الارتقاء كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية التي كانت
قد ظهرت جديداً في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب ، وتحولوا بهديتها
من الفرقة إلى الوحدة ، ومن الجاهلية إلى المدنية ، ومن القسوة إلى الرحمة ،
ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد ، وتبدلوا بأرواحهم الأولى
أرواحاً جديدة ، صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان
وثروة ، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن ، ولولا الخلاف الذي عاد
فدب بينهم منذ أواخر خلافة عثمان وفي خلافة علي رضي الله عنها لكانوا
أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف .

على ان تلك الفتوحات التي فتحوها في نصف قرن أو ثلثي قرن برغم
الحروب التي تسببت بها مشاققة معاوية لعلي والحروب التي وقعت بين بني
أمية وابن الزبير قد أدهشت عقول العقلاء والمؤرخين والمفكرين ، وحيرت
المفاتيح الكبار ، وأذهلت نابليون بوناپرت أعظمهم ، وله تصريح في ذلك
نقله عنه « لا كاس » الذي رافقه إلى جزيرة « سانت هيلانة » وغيره من
المقيدون لحوادث نابليون المتبعين لأقواله فقد ثبت ثبوتاً قطعياً من أقوال
ذلك الفاتح العظيم وسيرته أيام كان بمصر انه كان معجباً بمحمد وعمر وبكثير
من أبطال الإسلام وان نفسه حدثته لما كان بمصر أن يتخذ الإسلام ديناً له .

فالقراآن قد أنشأ إذا العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً
وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في إحدى اليدين والكتاب في الأخرى
يفتحون ويسودون ، ويتمكنون في الأرض بطولها وعرضها .

ولا عبرة بما يقال في شأن العرب قبل الإسلام ، وما يروى من فتوحات لهم ومدنيت أثيلة ، وما ينوّه به من أخلاق عظام في الجاهلية ، فهذه ولا جدال قد كانت ولا تزال آثارها ظاهرة ، ولا شك في مدينة العرب القديمة وانها من أقدم مدنيت العالم على الاطلاق ، وما يرجح ان الكتابة قد بدأت عندهم ، وانه لو فرض ان الفينيقيين الذين اخترعوا الكتابة في العالم فالفينيقيون في الحقيقة أمة سامية عربية ، ولكن دائرة قلمك المدنية كانت محدودة مقصورة على الجزيرة وما جاورها . وقد أتى على العرب حين من الدهر سادهم الغرباء في ارضهم ، وأذلهم الاجانب في عقر دارهم ، كالفرس في اليمن وعمان والحيرة ، وكالحبشة في اليمن ، وكالروم في اطراف الحجاز ومشارف الشام . والحقيقة انهم لم يستقلوا استقلالاً حقيقياً واسعاً إلا بالاسلام ، ولم تعرفهم الأمم البعيدة وتخضع لهم الممالك العظام والقيصرة والا كاسرة وتحدث بصولتهم الناس ولم يقدوا من التاريخ نلمعد الذي أحلهم في الصف الاول من الأمم الفاتحة إلا بمحمد ﷺ .

فالسبب الذي به نهضوا وفتحوا ، وسادوا وشادوا ، وبلغوا هذه المبالغ كلها من المجد والرقى ، يجب علينا ان نبحث عنه وننشده ، ونخفي المسألة ونعمن في النشدان: أهو باق في العرب وهم قد تأخروا برغم وجوده وتأخر معهم تلاميذهم الذين هم سائر المسلمين ، أم قد ارتفع هذا السبب من بينهم ، ولم يبق من الايمان إلا اسمه ، ومن الإسلام إلا رسمه ، ومن القرآن إلا الترنم به ، دون العمل بأوامره ونواهيه ، إلى غير ذلك مما كان في صدر الملة وعنجبيه الشريعة .

فقد المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم :

إذا فحصنا عن ذلك وجدنا ان السبب الذي به استقام هذا الامر قد أصبح مفقوداً بلا نزاع ، وان كان بقي منه شيء كباقي الوشم في ظاهر اليد

فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزة بمجرد الاسم دون الفعل لكان يحق لنا أن نقول : أين عزة المؤمنين ؟ من قوله تعالى :

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (١) .

ولو كان الله قد قال :

وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٢) .

بمعنى انه ينصرهم بدون أدنى مزية فيهم سوى انهم يعلنون كونهم مسلمين ، لكان ثمة محل للتعجب من هذا الخذلان بعد ذلك الوعد الصريح بالنصر . ولكن النصوص التي في القرآن هي غير هذا ، فالله غير مخلف وعده ، والقرآن لم يتغير ، وإنما المسلمون هم الذين تغيروا ، والله تعالى أذنب بهذا فقال :

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (٣) .

فلما كان المسلمون قد غيروا ما بأنفسهم كان من العجب أن لا يغير الله ما بهم ، وان لا يبدلهم الذل والضعفة ، من ذلك العز وتلك الرفعة ، بل كان ذلك يُعدُّ منافياً للعدل الإلهي . والله عز وجل هو العدل المحض .

كيف ترى في أمة ينصرها الله بدون عمل ويفيض عليها الخيرات التي كان يفيضها على آباءها ، وهي قد قعدت عن جميع العزائم التي قد كان يقوم بها آباؤها ؟ وذلك يكون أيضاً مخالفاً للحكمة الإلهية والله هو العزيز الحكيم .

(١) المنافقون : من الآية ٨ ،

(٢) الروم : من الآية ٤٧ ،

(٣) الرعد : من الآية ١٢ .

وما قولك في عزة دون استحقاق ، وفي غلة دون حرث ولا زرع ، وفي فوز دون سعي ولا كسب ، وفي تأييد دون لدنى سبب يوجب التأييد ؟

لا جرم ان هذا مما يغري الناس بالكسل ، ويحول بينهم وبين العمل ، بل مما يخالف النواميس التي أقام الله الكون عليها وهو مما يستوي به الحق والباطل ، والضرار والنافع ، والموجب والسالب ، وحاشا الله ان يفعل ذلك . ولو أيد الله مخلوقاً بدون عمل لأيد من دون عجل - محمداً رسوله ولم يحوجه إلى القتال والنزال والنضال ، واتباع سنن الكون الطبيعية للوصول إلى الغاية .

وتصور أمة لله عندها مائة وهي تؤدي من المائة خمسة فقط ، أتعد نفسها قد أدت ما عليها وهي تطمع في ان يكافئها الله كما كان يكافئ أجدادها الذين كانوا يؤديون المائة مائة ، وإن قصرُوا عن المائة أدوا بالأقل تسعين او ثمانين منها ؟ كل هذا يخالف لما وعد الله على رسله ومخالف للعقل والمنطق ، ومخالف لحكمة التشريع ، وليس هذا هو الشرط الذي شرطه الله على المؤمنين ، وليس هذا هو البيع الذي يستبشر به المؤمنون .

قال الله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ
الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدَا عَلَيْهِ
حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ

اللَّهِ؟ فَاسْتَبَشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ . وَذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١) .

فأين حالة المسلمين اليوم من هذا الوصف الذي في كتاب الله ؟ وأين حالتهم من سلفهم الذين كانوا يتهافتون على الموت الأحمر لإحراز الشهادة وكثيراً ما كانوا ينشدون الموت ولا يجدونه ؟ وكان فارسهم يكر وهو يقول :
إني لأشم ريح الجنة ، ثم لا يزال يكر ويخوض غمرات الحرب حتى إذا استشهد قال : هذا يوم الفرح ، وإذا فاتته الشهادة برغم حرصه عليها عاد إلى قومه حزيناً كثيراً .

المقابلة بين حالي المسلمين والافرنج اليوم :

اليوم فقد المسلمون أو أكثرهم هذه الحماسة التي كانت عند آباءهم ، وإنما تخلَّق بها اعداء الإسلام الذين لم يوصهم كتابهم بها ، فتجد أجنادهم تتوارد على حياض المنايا سباقاً ، وتتلقى الأسنة والحراب عناقاً ، ولقد كان مبلغ مفاداتهم بالنفائس وتضحيتهم للنفوس في الحرب العامة فوق تصور عقول البشر ، كما يعلم ذلك كل أحد ، فالألمان فقدوا نحو مليوني قتيل ، والفرنسيون فقدوا مليوناً واربعمائة ألف قتيل ، والانكليز فقدوا ستمائة ألف قتيل ، والطلبيان فقدوا أربعمائة وستين ألف قتيل ، والروس هلك منهم ما يفوق الاحصاء وهلم جرأ . هذا من جهة النفوس ، وانكلترا بذلت سبعة مليارات من الذهب (أي سبعة آلاف مليون جنيه) وفرنسة بذلت نحو مليارين ، والمانييا أنفقت ثلاثة ، وإيطالية أنفقت خمسمائة مليون ، وروسية أنفقت ما أوقع فيها المجاعة التي آلت إلى الثورة ثم إلى البلشفة ، وهلم جرأ .

(١) التوبة : ١١٢ .

فليقل لي قائل : أية أمة مسلمة اليوم تقدم على ما أقدم عليه هؤلاء
النصارى من بيع النفوس وإنفاق الأموال بدون حساب في سبيل أوطانهم
ودولهم حتى نعجب نحن لماذا آتاهم الله هذه النعمة والعظمة والثروة وحرم
المسلمين اليوم أقل جزء منها ؟

وقد يقال : إن المسلمين فقراء ليس عندهم هذه الأموال لينفقوا هذا
الانفاق كله . فنجيب بأننا نوزع هذه النفقات على الأوروبيين بنسبة رأس
المال لا نكلف المسلمين إلا الانفاق مثل الأوروبيين على هذه النسبة ، فهل
تسخو الأمم الإسلامية الحاضرة بما تسخو الأمم الأوروبية التي منها من قد
أنفقت في الحرب العامة أكثر من نصف ثروتها ؟

الجواب : لا . ليس في المسلمين اليوم من يفعل ذلك لا أفراداً ولا أقواماً ،
وندر في المسلمين من ينفق الزكاة الشرعية .

وقد يقال : إن الأمة التركية وهي أمة مسلمة قد أنفقت كل ما تقدر
عليه في حرب اليونان ولم تقصر عن شأو الأوروبيين في المفاداة بالأنفس
والنفائس .

والجواب : نعم .

قد كان ذلك . ومن الترك من بذل ثلث ثروته ومنهم من بذل نصف
ثروته في هذه الحرب ، ولكنهم لما فعلوا ذلك انقلبوا بنعمة من الله وقازوا ،
وحرروا أنفسهم واستقلوا ، وارتفعوا بعمد أن كانوا هووا ، وعزوا بعد أن
كانوا ذلوا . إذا الأمم الإسلامية إذا ائتمرت في المعاداة بما أمرها به كتابها
كما كان يفعل آباؤها ، أو اقتدت على الأقل بما هو دأب الأوروبيين اليوم
من بذل النفوس والنفائس في سبيل حفظ بيضتها ، وذود المعتدين عنها ، لم
تقطع من ثمرات التضحية إلا مثل ما قطفه غيرها . وانقلبت بنعمة من الله
وفضل لم يمسهما سوء .

ولكن الامم الإسلامية تريد حفظ استقلالها بدون مفاداة ولا تضحية ، ولا بيع أنفس ولا مسابقة إلى الموت ، ولا مجاهدة بالمال ، وتطالب الله بالنصر على غير الشرط الذي اشترطه في النصر (١) فإن الله سبحانه يقول :

وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ (٢) . ويقول : إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ
يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٣) .

ومن المعلوم ان الله تعالى غير محتاج إلى نصره احد ، وإنما يريد بنصرته تعالى اطاعة أوامره واجتناب نواهيه . ولكن المسلمين اهلوا جميع ما أمرهم به كتابهم (في ذلك) او اكثره ، واعتمدوا في استحقاق النصره على كونهم مسلمين موحدين ، وظنوا ان هذا يغنيهم عن الجهاد بالانفس والاموال . ومنهم من اعتمد على الدعاء والابتساح لرب العزة لانه يحده أيسر عليه من القتل واللبذل . ولو كان مجرد الدعاء يعني عن الجهاد لاستغنى به النبي ﷺ وصحابته وسلف هذه الامة فإنهم الطبقة التي هي أولى بأن يسمع الله دعاءها . ولو كانت الآمال تبلغ بالادعية والاذكار ، دون الاعمال والآثار ، لانتقضت سنن الكون ، وبطل التشريع ولم يقل الله تعالى :

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٤) .

(١) النار: راجع تفصيل هذه المسألة في اجزاء تفسير المنار تجده بدلالة الفهارس في مواضع من اكثرها ، منها ١٣ موضعاً في الجزء الرابع منه و ٧ مواضع في الجزء الثاني ، وآخرها في آخر الجزء التاسع ولها مزيد في بضع مواضع من الجزء العاشر (ر) .

(٢) الحج : ٤٠

(٣) محمد : من الآية ٧ .

(٤) النجم : ٣٩ .

ولم يقل :

وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ (١) .

ولم يقل للمعتذرين عن القتال :

لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ
وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ (٢) .

ولم يقل :

أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ (٣) .

لقد ظن كثير من المسلمين انهم مسلمون بمجرد الصلاة والصيام وكل ما لا يكلفهم بذل دم ولا مال ، وانتظروا على ذلك النصر من الله . وليس الامر كذلك فإن عزائم الإسلام لا تنحصر في الصلاة والصيام ، ولا في الدعاء والاستغفار ، وكيف يقبل الله الدعاء من قعدوا وتحلفوا ، وقد كان في وسعهم أن ينهضوا ويمدوا (٤) .

(١) التوبة : من الآية ١٠٦ .

(٢) التوبة : من الآية ٩٤ .

(٣) آل عمران : من الآية ١٩٥ .

(٤) يظهر ان الامير لم يقرن الزكاة بالصلاة والصيام لعلمه بأن أكثرهم تركها وهي ركن الاسلام الدنيوي المادي ، والصلاة ركنه الروحي ، وهم يطلبون الدنيا ويتركون من الاسلام أهم أركانها - الزكاة والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله - وقد وصف الله المؤمنين الصادقين بالجهاد بأموالهم وأنفسهم فقدم ذكر المال وقال في سياق آيات القتال : (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أى بعدم الانفاق وقد قاتل الصحابة (رض) من منع الزكاة ولم يعتدوا بإسلامهم بدونها (ر) .

اعتذار المسلمين عن أنفسهم وردده :

يقولون : ليس عند المسلمين ما عند الافرنج من الثروة والسعة لينفقوا في أعمال الخير وفي مساعدة بعضهم بعضاً . فنقول لمن يحتاج بهذه الحجة إننا نرضى منهم أن ينفقوا على نسبة رؤوس أموالهم كما تقدم الكلام عند ذكر الجهاد بالمال . فهل المسلمون فاعلون ؟

إننا نراهم قد محوا رسوم الأوقاف والمؤسسات الخيرية التي تركها آباؤهم ، فضلاً عن كونهم لا يتبرعون بأموالهم الخاصة ولا يجرون مع الاوروبيين في ميدان من جهة التبرع لأجل المشروعات العامة ، فكيف يطمع المسلمون أن تكون لهم منزلة الاوروبيين في البسطة والقوة والسلطان ، وهم مقصرون عنهم بمراحل في الإيثار والتضحية ؟ فان العمل لأجل السلطان في الأرض ، أشبه بالحرث في الأرض ، فبقدر ما تشتغل فيها هي تعطيك . وإن قصرت في العمل قصرت هي في الثمر ، والمسلمون يريدون سلطاناً يشبه سلطان الاوروبيين بدون إيثار ولا بذل ، ولا فقد شيء من لذائذهم ، وينسون ان الله تعالى يقول :

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١) .

وقد يقولون : إننا جربنا البذل والتضحية ، وابتلينا بالنقص من الاموال والأنفس والثمرات وصبرنا ولم يفدنا ذلك شيئاً ، وبقي الاوروبيون مسلمين علينا ، إني أنقل هذا القول عن بعضهم لأنني قد سمعته كثيراً .

والجواب : هل يقدرّون أن يقولوا لنا أن ما يدعونه من البذل والتضحية

(١) البقرة : ١٥٥ .

يشبه شيئاً مما يقوم به النصارى واليهود من هذا القبيل ؟ او انه إذا نسب اليه تكون نسبته نسبة الواحد إلى المائة ؟

عندنا مثال حديث العهد هو مسألة فلسطين : حدثت وقائع دموية بين العرب واليهود في فلسطين فأصيب بها أناس من الفريقين فأخذ اليهود في جميع أقطار الدنيا يساعدون المصابين من يهود فلسطين ، وأراد العالم الإسلامي أن يساعد عرب فلسطين كما هو طبيعي ، فبلغت تبرعات اليهود لأبناء ملتهم من فلسطين مليون جنيه ، وبلغت تبرعات المسلمين كلها ١٣ ألف جنيه أي نحو جزء من مائة (١) .

فسيقولون : ان المسلمين لا يملكون مثل ثروة اليهود . ونعود فنحجيبهم نرضى منهم بأن ينفقوا في مساعدة ملتهم على قدر اليهود والافرنج بالنسبة إلى رؤوس أموالهم ، ولا نطالب منهم الفقراء الذين لا يملكون ما يزيد على كفاية عائلاتهم .

(١) عنيت بهذه الواقعة الفتنة التي جرت سنة ١٩٢٩ ميلادية وكان مجموع ما أعان به العرب اخوانهم في فلسطين ثلاثة عشر الف جنيه لا غير إلا أن حوادث الدهر علمت المسلمين وأيقظتهم ونيران المصائب والخطوب أحسنت سبكم . ففي هذه السنوات العشر الاخيرة بدأوا يقتدون باليهود والاروروبيين في البذل وساروا فيه على أثرهم وان كانوا لا يزالون في اول الطريق ولقد أحصيت اعانات العرب لخواصهم في فلسطين بين سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ فزادت على ما كان يحصل من قبل ولكن هذه الاعانات أثرت ثمرها وثبتت أقدام العرب في وجه الانكليز واليهود حتى اضطر الانكليز الى سوق ٣٠ الف جندي هم في نضال مستمر من سنتين الى الآن مع العرب ووراءهم قوى عظيمة من البوليس واليهود المسلحين والخائنين من العرب أنفسهم ومن قوة شرقي الأردن ، ولم يتمكنوا من اخاد الثورة ولا حصلوا على طائل ، وعادت الانكليز فنكصت على أعقابها ورضيت بعقد مؤتمر في لندرة تحضره وفود الدول العربية لمساعدتها على حل المعضلة الفلسطينية ورجعت عن برنامجها الاول وهو اعطاء فلسطين لليهود راضية بأن يكون هؤلاء ثلث عدد السكان لا يزيدون على الثلث فهذا التحول نتيجة المقاومة وهذه المقاومة إنما كانت نتيجة البذل والساح واستصغار الدنيا ، ومن استصغر الدنيا كبرت لديه ، ومن هانت عليه الحياة جاءت الحياة تسمى على رجلها سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً (ش) .

قال الله تعالى :

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى
الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ^(١) .

ثم قال تعالى :

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا
بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ^(٢) .

ونجيب أيضاً :

إنه وإن كان اليهود أغنى بالأموال من المسلمين فالمسلمون أكثر جداً
بالعدد، لأن اليهود عشرون مليوناً، والمسلمين نحو من أربعائة مليون ^(٣). فلو أن
كلاً من المسلمين تبرع لفلسطين بقرش واحد - وهو الذي لا يعجز عنه أحد
في العالم مهما اشتد فقره - لاجتمع من ذلك ثلاثة ملايين جنيه ونصف .

(١) التوبة : من الآية ٩١ .

(٢) التوبة : من الآية ٩٣ .

(٣) بعد أن ثبت بالأحصاء الرسمي أن مسلمي الصين خمسين مليون نسمة تحقق أن مسلمي
المعمر كله لا يقاوم عن أربعائة مليون منهم ٢٤ مليوناً من العرب في آسيا و ١٧ مليوناً من
الترك في الأناضول و ١٦ مليوناً في إيران و ١٠ ملايين في أفغانستان و ٨٥ مليوناً في الهند
و ٥٦ مليوناً في الجارى و ٢٥ مليوناً في الروسية وثلاثة ملايين في أوروبا و ٥٠ مليوناً في
الصين وسائة مليون في افريقية .

فلنترك تسعة أعشار المسلمين ونفرض هذه الاعانة لفلسطين على عشر واحد منهم أي على ٣٥ مليون نسمة لا غير . وهؤلاء الخمسة والثلاثون مليون نسمة نخدمهم حول فلسطين في لمحة بصر . فإن مسلمي مصر وسورية وفلسطين والعراق ونجد والحجاز واليمن وعمان هم ٣٥ مليوناً . ولنتقاض من هؤلاء أداة قرش واحد عن كل جمجمة ، فماذا يجتمع لنا من ذلك ؟

الجواب : يجتمع ثلاثمائة وخمسون ألف جنيه .

فالمسلمون قد تبرعوا عن هذه الاعداد كلها بثلاثة عشر ألف جنيه أي بما يساوي نحو ثلثي عشر القرش عن كل نسمة من عشر عددهم .

أهذا ما تريدون أن تسموه « تضحية » ؟

أو بمثل هذا تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ؟

أو هذه درجة نجاتكم لآخوانكم في الدين وجيرانكم في الوطن والقائمين عنكم بالدفاع عن المسجد الأقصى الذي هو ثالث الحرمين وأول القبلتين ؟ أفلم يقل الله تعالى :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (١) .

أف هذه نجدة الأخ لأخيه ؟

يقولون : لما إذا سادت الأمة الانكليزية هذه السيادة كلها في العالم ؟ نجيبهم : انها سادت بالاخلاق والمبادئ الوطنية العالية . حدثني رجل ثقة أنه يعرف انكليزياً ذا منصب في الشرق كان يأمر خادمه ان يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يومياً من دكان رجل انكليزي في البلدة التي هم فيها .

(١) الحجرات : من الآية ١٠ .

فجاءه الخادم مرة يجداول حساب وفر عليه به ٢٠ جنياً في شهر . فسأله الانكليزي : كيف امكنتك هذا التوفير ؟

فقال الخادم : تركنا دكان الانكليزي الذي كنا نشترى منه وصرنا نشترى من دكان أحد الاهالي من العرب .

فقال له الانكليزي : ارجع الى دكان الانكليزي الذي كنا نشترى منه .

فقال الخادم : أو لو كان ذلك يستلزم انفاق ٢٠ جنياً زيادة ؟

قال الانكليزي : ولو كان ذلك يستلزم انفاق ٢٠ جنياً زيادة .

وسمعت أن كثيرين من الانكليز الذين في الاقطار لا يشترون شيئاً ذا قيمة إلا من بلادهم ويرسلون إلى لندرة فيوصون على كل ما يحتاجون اليه حتى لا يذهب ما لهم إلى الخارج .

أفنتيس هذا بأعمال المسلمين الذين مهما أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم او اوطانهم وعلّموا أنهم يقدرّون ان يوفروا في السلعة الواحدة نصف قرش إذا أخذوها من الافرنجي تركوا ابن جلدتهم أو ملتهم ورجعوا الافرنجي ؟ أفلم يكن سبب حبوط مقاطعة العرب لليهود في فلسطين أشياء كهذه (١) ؟ حرّموا أنفسهم أمضى سلاح في يدهم وهو المقاطعة في الأخذ والعطاء مع اليهود من أجل فروق تافهة موقّمة ونسوا أن الضرر الذي يصيبهم من الأخذ والعطاء مع اليهود هو أعظم ألف مرة من ضرر هاتيك الفروق الزهيدة .

(١) اما الآن فقد أصبح السواد الأعظم منهم يبنون النفوس والنفائس في الدفاع عن وطنهم فلسطين وأتوا في هذه السبيل بما ارتفعت له رؤوس العرب جميعاً ولو ان هذه المناادة ظهرت منهم من أول الأمر ما وصلت المصيبة الى هذا الحد (ش) .

نتائج اعانة مصر لمجاهدي طرابلس وبرقة :

وكنت مرة أشكو إلى أحد كبار المصريين إهمال اخواننا المصريين لمجاهدي طرابلس وبرقة الذين إن لم تجب عليهم نجدتهم قياماً بواجب الاخوة الإسلامية والجوار ، وجبت عليهم احتياطاً من وراء استقلال مصر واستقبال مصر ، لانه كما ان وجود الانكليز في السودان هو تهديد دائم لمصر ، فوجود الطليان في برقة هو تهديد دائم لها أيضاً .

فكان جواب ذلك السيد لي : لقد بذل المصريون مبالغ وفيرة يوم شنت ايطالية الغارة على طرابلس ولم يستفيدوا شيئاً فان ايطالية لم تلبث أن أخذتها .

فقلت له : إن المصريين قد نهضوا في الحرب الطرابلسية نهضة هي دون شك ترضي كل مسلم بل ترضي كل إنسان يقدر قدر الحماية ، ولكن المبلغ الذي تبرعوا به يومئذ معلوم وهو ١٥٠ الف جنيه .

فهل يطمع المسلمون في أنحاء الممور أن ينقذوا طرابلس من براثن ايطالية بمائة وخمسين الف جنيه؟ وهل هذه التضحية تقاس في كثير أو قليل إلى التضحيات التي قامت بها ايطالية بالمال والرجال ؟

كانت إعانة مصر في الحرب الطرابلسية ١٥٠ الف جنيه وانفقت الدولة العثمانية على تلك الحرب نحو مليون جنيه .

فانظر إلى ما كان لذلك من النتائج .

(النتيجة الأولى) وهي أهم شيء: حفظ شرف الإسلام وافهام الاوروبيين أن الإسلام لم يمت وأن المسلمين لا يسلمون بلدانهم بلا حرب وفي ذلك من الفائدة المادية والمعنوية للإسلام ما لا ينكره إلا كل مكابر .

(النتيجة الثانية) ان هذا المبلغ الضئيل بالنسبة إلى نفقات الدول الحربية قد كان السبب في توطين الطرابلسيين أنفسهم على المقاومة والمجاهدة بما رأوا من نجدة اخوانهم لهم . فكانت هذه المقاومة سبباً لتجشم إيطالية المعتدية من المشاق والحسائر ما هو فوق الوصف إلى أن صار كثير من ساسة الطليان يصرخون بندمهم على هذه الغارة الطرابلسية .

(النتيجة الثالثة) مها يكن من عدد القتلى الذين فقدهم العرب في هذه الحرب فان مجموع قتلى الطليان إلى اليوم يفوق مجموع قتلى العرب أضعافاً مضاعفة .

فلقد لقي الطليان في هذه الحرب من الالهوال ما لا يتسع لوصفه مقالة أو رسالة . وفي واقعة واحدة هي واقعة « الفويهات » على باب بنغازي ثبت فيها ١٥٠ مجاهداً عربياً لثلاثة آلاف جندي طلياني من الفجر إلى غروب الشمس إلى ان انقضوا جميعاً ، إلا أفذاذاً أتى عليهم الليل ، ورجع العدو ولما يموتوا : وبينما كان العرب في حزن عظيم على من فقدوهم في تلك المعركة إذ جاءهم الخبر البرقي من الاستانة عن برقية وردت سرأ من برلين عن برقية رومية جاءت من سفارة الالمان في رومية بأنه سقط في هذه المعركة للف وخمسةائة جندي من الطليان وأصاب الجنون سبعة من ضباطهم .

وهذه وقعة من خمسين وقعة بالأقل تضاهيها، فالمسلمون قد قاتلوا في هذه المعركة جيشاً يفوقهم في العدد عشرين ضعفاً وقتلوا نصفه أي قتلوا عشرة أضعافهم - والله تعالى قد قدر لهم في حال القوة ان يغلبوا عشرة أضعافهم وفي حال الضعف أن يغلبوا ضعيفهم فقط كما قال في سورة الأنفال (١) :

(١) الآية ٦٦ .

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا
أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * أَلَا إِنَّ
خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ
يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

(النقيجة الرابعة) انه قد كانت نفقات ايطاليا في الحرب الطرابلسية في
السنة الاولى منها أي من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩١٢ نحو مائة مليون جنيه ،
ويظن انها من عشرين سنة إلى اليوم— إذ المقاومة لم تنقطع حتى هذه الساعة—
قد بلغت ثلاثمائة مليون جنيه (١) .

فهذا كان كله نتيجة تلك الاعانات القليلة والنفقات الضئيلة التي قام بها
المسلمون في تلك الحرب ، ولكن المسلمين ينتظرون ان تنهزم ايطاليا الدولة
الكبيرة التي أهلها ٤٤ مليون نسمة ودخلها السنوي ٢٠٠ مليون جنيه في

(١) أما في هذا العهد فقد انقطعت المقاومة بالسلاح وكان آخر من قاوم الطليان بالسلاح
الشهيد والمجاهد الكبير عمر المختار رحمه الله الا ان الطرابلسيين لا يزالون يقاومون الاستعمار
الطلياني كما يقاوم التونسيون وسائر المغاربة الاستعمار الفرنسي ومن العبث ان تظن دول الاستعمار
اخذت الحركات الوطنية بالمسف والقهر والقتل والنفي والحبس فكل هذا لا يزيد المسلمين إلا
عداء وما استصلح عدو بمثل العدل (ش) .

صدمة واحدة أو في السنة الأولى من الحرب^(١) وإن لم يتحقق أملهم هذا انقطع منهم كل رجاء وبطلت كل حركة ، وأصاب بعضهم اليأس الذي هو مرادف للكفر بصريح الذكر الحكيم .

إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ^(٢) .

(١) أي هذا عددها . وهذا دخلها ، وهذا انفاقها على الحرب ، وأما عصبيتها وضراوتها في سفك دماء المسلمين فحسب المسلم الذي لم يفسده التفرنج والاحداد ان يقرأ النشيد الطلياني الذي ننقل ترجمته عن جريدة الفتح نقلاً عن جريدة الشرق عدد ٥٤٣ وهو :

النشيد الطلياني في التحريض على قتال المسلمين ومحو القرآن .

إن من أعظم الآلام لشاب في العشرين من عمره ان لا يحارب في سبيل وطنه مع دوام القتال في طرابلس ، والراية الثلاثة الالوان والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقدمة . يا أماء أمتي صلاتك ولا تمبكي ، بل اضحكي وتأملي ، ألا تلمين أن ايطالية تدعوني وانا ذاهب الى (طرابلس) فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة (كذا) ولأحارب الديانة الاسلامية التي تجيز البنات الأبنكار للسلطان (*) .

سأقاتل بكل قوتي لحو القرآن (كذا) .

ليس بأهل للمجد من لم يميت ايطالياً حقاً .

تحمسي أيتها الوالدة ، تذكرني (كاروني) التي جادت بأولادها في سبيل وطنها : -

يا أماء انا مسافر . ألا تعلمين ان على الامواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستلقي سفائننا المراسي؟ انا ذاهب الى طرابلس مسروراً لان رايتنا المثلثة الالوان تدعوني . وذلك القطر تحت ظلها . =

(٢) يوسف : من الآية ٨٧ .

(*) الديانة الاسلامية لا تجيز للسلطان إلا ما تجيزه لغيره من المسلمين ، وهو تزوج البكر والشيب ، ولكن الافرنج تبيح لهم نصرانيتهم الافتراء على الاسلام وتبيح لهم مدفنتهم الزنا حتى أفسدوا كل قطر دخوله ببغاياهم لا سيما الطليان منهم (ر) ،

ولنضرب مثلاً ثالثاً ونمسك بعده عن ضرب الامثال لانها لا تعد ولا تحصى :

قام أهل الريف المغربي في وجه الدولة الاسبانية مدة بضع سنين إلى ان تغلبوا عليها وطردها جيوشها بعد ان أبادوا منهم في واقعة واحدة ٢٦ الف جندي وغنموا ١٧٠. مدقماً مع ان جميع اهل الريف بقضهم وقضيضهم ثمانمائة الف نسمة . وعدد اهالي اسبانية ٢٢ مليون نسمة ، وارااضي الريف اكثرها قاحل والاهالي فيه فقراء يعيشون من كسب ايديهم ، ولقد قاموا بعمل أدهش اهل الارض بالطول والعرض .

فلو كان اهل الريف نصارى لانتالت عليهم الملايين من الجنيهات من كل الجهات اما بطريقة خفية وإما بواسطة جمعية الصليب الاحمر في سبيل مداواة جرحاهم .

فليقل لنا المسلمون كم جنيتها قدموا للريف في ذلك الوقت ؟

ثم تألب الفرنسييس مع الاسبانيين وحشدوا لحرب الريفين ٣٠٠ الف مقاتل وحصروا الريف من كل جانب من البر والبحر وكانت طياراتهم القاذفة بالديناميت على قرى الريفين تحصى بالمئات لا بالعشرات ولم تكف طائرات الفرنسييس والاسبانيول حتى جاء سرب طيارات اميركية من نيويورك نجدة لفرنسة واسبانية (النصرانيتين على المسلمين لانهم مسلمون) .

= لا تموت في لانتا في طريق الحياة ، وإن لم ارجع فلا تبكي على ولدك ولكن اذهبي في كل مساء وزوري المقبرة ونسائم الاصيل تحمل الى طرابلس وداعك الذي لا يابى الحداد على قبره فلذة كبذك ، وإن سألك احد عن عدم حدادك على فأجيبه : إنه مات في محاربة الاسلام .
الطبل يقرع يا أمه ، انا ذاهب ايضاً . ألا تسمعين مزج الحرب ، دعيني اعانقك وأنهب ! (ر) ،

هذا كله والمسلمون ينظرون إلى حرب الريف مكتوفي الايدي ، ولبشوا
مكتوفي الايدي مدة سنة واخيراً نهض منهم افراد لجمع شيء من اجل
جرحى الريف ، ولأجل بُعث الحمية في الناس لم يكتف محرر هذه السطور
بالكتابة بل تبرع بأربعة جنيهات لاجل القدوة ، فإذا كان مجموع تلك
الاعانات من كل العالم الإسلامي ؟ الجواب ١٥٠٠ جنيه لا غير . فهل من
خذلان بين المسلمين يفوق هذا الخذلان !

خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم واعتذارهم الباطل :

ويا ليت المسلمين وقفوا عند هذا الحد في خذلان الريفين بل قامت منهم
فئات يقاتلون الريفين بأشد مما يقاتلون به الاجانب ، وتألبت على محمد بن
عبد الكريم قبائل وافرة العدد شديدة البأس مالأوا الفرنسيس والاسبانيول
على أبناء ملتهم ووطنهم تزلفاً إلى الفرنسيس والاسبانيول وابتغاء الحظوة
لديهم . وقد جرى مثل ذلك عندنا في سورية يوم الثورة على فرنسة ، وجرى
في بلاد إسلامية كثيرة (١) ، أفبمثل هذه الاعمال يطالب أخونا الشيخ بسيوني
عمران ربه بما وعد تعالى به من جعل العزة للمؤمنين ؟

وإذا سألت هؤلاء المسلمين الممالئين للعدو على اخوانهم : كيف تفعلون
مثل هذا وأنتم تعلمون أنه مخالف للدين وللشرف وللقتوة والبروءة والمصلحة

(١) والآن عساكر شرقي الاردن وهم من العرب يقاتلون بكل شدة مجاهدي فلسطين الذين
هم اخوانهم في النسب والمذهب وهم يعلمون ان هؤلاء المجاهدين إنما يذودون عن حياض العروبة
والاسلام ويجودون بنفوسهم لاجل استحياء قومهم واستبقاء وطنهم للعرب وأنه لولا هؤلاء
المجاهدون لتسلم اليهود جميع فلسطين من زمن طويسل تحت ظل حراب الانكليز فبينما دماء
المجاهدين تسيل لاجل حفظ فلسطين للعرب نجد دماء عساكر عربية في شرق الاردن تسيل لاجل
اخراج بلاد فلسطين وشرق الاردن نفسها بعد فلسطين من ايدي العرب .
فهل يبلغ العدو من عدوه أكثر مما يبلغ العرب من انفسهم ؟ لا والله (ش) .

وللسياسة ؟ أجابوك : كيف نضع فان الاجانب انتدبونا ولو لم نفعل لبطشوا بنا ، فاضطررنا الى القتال في صفوفهم خوفاً منهم . ونسوا قوله تعالى :

أَتَخَشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَهَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) .

وقوله تعالى :

فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢)

وكلام مثل هؤلاء في الاعتذار غير صحيح فإن الاجانب قد ندبوا كثيراً من المسلمين إلى خيانات كهذه فلم يحيبوم ولم تنقض عليهم السماء من فوقهم ، ولا خسفت بهم الأرض من تحتهم ، ثم انه إن كان الأجانب المحتلون لبلاد المسلمين قد أصبحوا يفضون على المسلمين الذين لا يلبون دعوتهم إلى خيانة قومهم ، فإنما كان ذلك من أجل كثيرين من المسلمين كانوا يعرضون عليهم خدمتهم في مقاومة اخوانهم ويقومون بها بكل نشاط و مناصحة ، ويبدون كل امانة لهم في أثناء تلك الخيانة . ولولا هذا التبرع بالخيانة ، والتسرع إلى مظاهرة الأجنبي على ابن الملة ، لما استأسد الأجنبي وصار يتحكم في المسلمين هذا التحكم الفاحش ، ويتقاضاهم أن يخالفوا قواعد دينهم ومقتضى مصلحة دنياهم من أجل مصلحته ، بل قام يحملهم على الموت لأجل الموت .

فإن الموت موتان : أحدهما الموت لأجل الحياة وهو الموت الذي حث

(١) التوبة : من الآية ١٤ .

(٢) آل عمران : من الآية ١٧٥ .

عليه القرآن الكريم المؤمنين إذا مد العدو يده اليهم وهو الموت الذي قال عنه
الشاعر العربي :

تَأَخَّرْتُ أُسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ

لِنَفْسِي حَيَاةَ مِثْلَ أَنْ أُتَقَدِّمًا

وهو الموت الذي يموته الافرنسي لأجل حياة فرنسة ، والامساني لأجل
حياة المانية ، والانكليزي في سبيل بريطانيا العظمى - وهم جراً - ويحده
على نفسه واجباً لا يتأخر عن ادائه طرفه عين .

وأما الموت الثاني فهو الموت لأجل استمرار الموت ، وهو الموت الذي
يموته المسلمون في خدمة الدول التي استولت على بلادهم . وذلك انهم يموتون
حتى ينصروها على اعدائها كما يموت المغربي مثلاً حتى تنتصر فرنسة على المانية
مثلاً . ويموت الهندي حتى تتغلب انكلترة على أي عدو لها . ويموت التتري
في سبيل ظفر الروسية . والحال أنه بانتصار فرنسة على اعدائها تزداد في
المغرب غطرسة وظلماً وابتزازاً لأملاك المسلمين وهضماً لحقوقهم ، وذلك كما
حصل بعد الحرب العامة إذ ازداد طمع الفرنسيين في أهل المغرب وحدثوا
أنفسهم بتنصير البربر ليدمجوهم في الشعب الفرنسي ويأمنوا على مستقبل
المغرب الذي صاروا يطلقون عليه لقب « افريقية الافرنسية » .

وبالاختصار يموت المغربي على ضفاف الرين أو في سورية حتى يزداد موتاً
في المغرب ، لأن كل طائفة تفوز بها فرنسة في الخارج هي زيادة في قهر المغربي
 وإهانته وإذلاله مما لا سبيل للمناكرة فيه ، ومما قد ثبت بالتجربة . وكذلك
موت الهندي في نصره انكلترا هو تطويل في أجل عبودية الهند وكذلك
موت التتري في خدمة الروسية لا عاقبة له سوى ازدياد قهر الروس للتتر .
وهلم جراً .

وهذا الموت لأجل الموت هو ما كان بخط منحني كما يقال أي باعتبار النتيجة ، ولكنه هناك موت لأجل الموت مباشرة بدون واسطة ، وهو عندما يموت المغربي في قتال أخيه المغربي الذي قام بمحاول أن يزحزح شيئاً من النير الافرنسي الذي كاد يدق عنقه ، وان لم يدق عنقه بتاتاً استحياء حياة هي أشبه بالموت منها بالحياة .

ولو انحصرت هذه الأمور في العوام والجهلاء لعذرناهم بجهلهم ، وقلنا انهم لا يدرون الكتاب ولا السنة ولا السياسة الدنيوية ، ولا الاحوال العصرية ، وانهم إنما يساقون كما تساق بهيمة الانعام إلى الذبح .

ولكن الأنكى هو خيانة الخواص . مثال ذلك الوزير المغربي الذي هو أشد تمصباً لقضية رفع الشريعة الإسلامية من بين البربر من الفرنسيين أنفسهم^(١) . ومثله البغدادي باشا فاس الذي طرح نحو مائة شخص من شبان فاس وجلدهم بالسياط لكونهم اجتمعوا في جامع القرويين وأخذوا يرددون دعاء : « يا لطيف ألطف بنا فيما جرت به المقادر ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر » ومفتي فاس الذي أفتى بأن إلغاء الشرع الإسلامي من بين البربر ليس باخراج للبربر من الإسلام وهلم جرا .

وكل من هؤلاء الخونة المارقين أخزاهم الله قد بلغ من الكبر عتياً ، وانتهى من أموال الأمة شعباً ورياً . وهو لا يزال حريصاً على الزلفى إلى فرنسة ،

(١) ويؤكدون انه كلما ارادت فرنسا تحت تأثير سخط العالم الاسلامي ان تعدل عن الظهير البربري المقصود به إخراج البربر من الاسلام بتاتاً جاء هذا المغربي يحدوها عاقبة الرجوع الى الصواب ويقول لها ان اهالي المغرب يعدون هذا مفها نكوصاً وضعفاً وبعد ذلك لا يمكنها ان تثبت أقدامها في شمالي افريقية فالمغربي إذأ هو اكبر مشجع للحكومة الافرنسية على المضي في سياستها البربرية التي ترمي الى تنصير البربر وادماجهم في الامة الافرنسية (ش) .

واثبات صداقته لها ولو بضياح دينه ودينياه ، حتى تبقي عليه منصبه وحظوظه في هذه البقية الباقية من حياته التاعسة (١) .

وليس واحداً من هؤلاء ولا من في ضربهم في المغرب إلا وهو مطلع على نيات فرنسة وعلى مراميها من جهة هذا النظام الجديد لأمة البربر ، وليس فيهم إلا من هو عارف بوجود جيش من القسوس والرهبان والراهبات يحوس خلال بلاد البربر ويبني الكنائس ويصيد اللقطاء والأيتام والفقراء وضعفاء الايمان (٢) ، وليس فيهم إلا من هو عالم بمنع فرنسة فقهاء الإسلام والوعاظ من التجوال بين البربر حتى ترتفع الحواجز أمام دعوة المبشرين إلى النصرانية (٣) وقد يكون المقري والبغدادي هذان هما في مقدمة الموقعين على الأوامر بمنع علماء الإسلام وحملة القرآن من الدخول إلى قرى البربر . وقد يكون المقري هذا هو الذي خصص المبلغ من مال المخزن لجريدة «مراكش الكاثوليكية» التي تظمن في الإسلام ، وتقذف محمداً عليه الصلاة والسلام ، ولدينا كثير من أعدادها التي تتضمن هذه المطاعن .

وبعد هذا فمن يدري ؟ فقد يكون المقري مصلياً وصائماً ويده سبحة

(١) الغريب في هذا ان أمثال هؤلاء الخونة يبيعون بلادهم كلها للأجنبي بثمن خسيس هو جزء منها لا من مال الاجنبي، ولو اخلصوا في صده عنها لكان لهم منها اكثر مما يعطيهم الاجنبي منها ثم يكون باقيها لارلادهم وأهلبيهم واخوانهم في الدين مع العز والشرف (ر) .

(٢) وما هو جار في المغرب ان الأذان لصلاة الفجر بمنوع في كثير من القرى التي يقطنها مستعمرو الفرنسيين وذلك لانه قد يمكن عليهم صفو رقادهم صباحاً (ش) .

(٣) وقد منعوا الوعاظ في شهر رمضان من الذهاب الى بلاد البربر وكانوا يحسبون من يخالف هذا الامر وقد اقبلوا مئات من الكتاتيب القرآنية في المغرب ومئات من مثلها في الجزائر واغلقوا دار الحديث في تلمسان واحتجت على ذلك جمعية علماء المسلمين في الجزائر فبا سمعوا لها كلاماً وأصر بعض رجال الدين الاسلامي في الجزائر على تعليم القرآن للاحداث فصاحوهم وحكوا عليهم (بالسجن أربعة اشهر بحجة أنهم خالفوا الأوامر الصادرة . وهلم جراً (ش) .

يقرأ عليها أوراذا . ومن يدري ؟ فقد يكون البغدادي السيء الذكر ممن يتمسحون بالقبور ويستغيثون بالأولياء ويتظاهرون بهذا الورع الكاذب . وأما المفتي فهو المفتي فلا حاجة إلى تثبيت كونه يصلي الخمس ، ويصوم ويتهجد ويوتر ويتنفل الخ .

وقد مضى علينا نحن في سورية شيء من هذا الأوائل عهد الاحتلال لكن لم تكن خيانة هؤلاء المعلمين في قضية دينية مباشرة . فقد اقترحت عليهم فرنسة أن يمضوا برقية إلى جمعية الأمم ينكرون بها عمل المؤتمر السوري الفلسطيني المطالب باستقلال سورية وفلسطين فأمضاه منهم عمائم مكورة ، وطبالس محررة مجررة ، ورقاب غليظة ، وبطون عظيمة وان لم أقل الآن : أخزاهم الله ، أخشى عتاب اخواننا المغاربة الذين يروني خصصت بهذا الدعاء صدرهم الأعظم ، ومفتيهم الأكبر ، وأعفيت معلمي سورية ، فلذلك يقضي العدل بأن نقول أخزاهم الله أجمعين ، أخزى الله الذين منهم في المشرق والذين منهم في المغرب ممن يوقعون على اقتراحات الاجانب المضرة بالدين والوطن^(١) .

ولعل الأخ الشيخ بسيوني عمران يقول : إن هؤلاء أفراد قلائل فلا يجوز أن نجعل الأمة الإسلامية مسؤولة عن مخازيهم وموبقاتهم .

والجواب على ذلك : إن الظلم يخص والبلاء يعم كما لا يخفى ، ولكني لا أسلم ان هؤلاء افراد قلائل ، وان الامة غير مسؤولة ! إذ لو كان وراء هؤلاء أمة يخشونها ما تجاسروا على الاتجار بدينها بعد الاتجار بدنياها بل كانوا

(١) على انهم في السنة التالية أرادوم على امضاء بيافات خبيثة كهذه فامتنعوا واحتجوا لدى الفرنسيين بان علمهم ذلك قد عرضهم للاهانة واستوجب مقت الشعب السوري لهم فهم لن يكرروا تلك الخيانة . وهذا دليل على ان الامة تقدر متى شامت ان تقوم أود هؤلاء المشايخ وان الخائنين الخادمين لدول الاستعمار ليس لهم علاج إلا الخوف على جلودهم (ش) ،

لو اقترح عليهم الفرنسيين اقتراحاً مضرراً بملتهم وأمتهم ولم يقدرُوا على رَدِّه
اعتزلوا مناصبهم ، ولزموا بيوتهم .

وكان الفرنسيون كلفوا بالعمل غيرهم ، فإذا أبى الخلف ما أباه السلف مرة
بعد مرة علم الفرنسيون ان لا فائدة في الاصرار ، فعدلوا عن دسيستهم
البربرية وما أشبهها ، ولكنهم مصرون عليها بسبب استظهارهم بأناس ممن
يزعمون انهم « مسلمون » فهم يهدمون الإسلام بمعاول في ايدي أبنائه ،
ويقولون لسنا من هذا الامر في قبيل ولا دبير (١) .

أفلا ترى كيف قالوا عن الظهير البربري إنه قد أصدره السلطان
وحكومة المحزن (٢) ؟

أفهنذا هو الإسلام الذي يناشد الله للشيخ بسميوني عمران بتأييد أهله ؟
قال الله تعالى :

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (٣) .

(١) وجميع الدول المستعمرة المتسلطة على ممالك الاسلام طريقتهم الاستظهار على المسلمين
بالمسلمين وقضية شرقي الاردن والحونة من عرب فلسطين من أنصع الشواهد على هذه الحالة .

(٢) أفلا ترى كيف انهم قتلوا في مكناسة الزيتون ٣٥ مسلماً وجرحوا ٦٠ من أجل
مظاهرة غير مسلحة قام بها الاهالي احتجاجاً على سلب السلطة ميساه بساينهم من أجل اعطائها
الى مستعمرة الفرنسيين وزعموا ان فعلهم هذا باسم السلطان .

ألم تر انهم الغوا الحزب الوطني المغربي وحكوا على الفين وخمسةائة شاب منهم بالحبس سنة
وسنتين ونفوا علاء القاسمي الى بلاد خط الاستواء ونفوا نخبة رجالات المغرب الى الصحراء
وضربوا ضرباً مبرحاً عشرات من الادياب منهم الاستاذ محمد المقري الذي مات تحت الضرب وكل
هذا باسم السلطان والسلطان لا يبدي ولا يعيد ولا يقدر ان يدفع عن رعيته التي مرجعها الى
الجنرال نرغيس واضع اساس المشروع البربري الأثيم (ش) .

(٣) دود ١٢٧ .

ولا شك أن « المسلمين » الذين يبلغون هذه الدرجات من الانحطاط وتتركهم الأمة الإسلامية وشأنهم يلعبون بحقوقها يستحقون للاسلام التمحيص الذي هو فيه ^(١) فإنما سمح الله بأن يستولي الاجانب على ديار المسلمين ويجعلهم خولاً ، ويفتصبوا جميع حقوقهم تعليماً لهم وتهذيباً . وتصفية وتطهيراً كما يصفى الذهب الابريز بالنار .

قال الله تعالى :

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ
بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ^(٢) .

لقد أصبح الفساد إلى حد ان أكبر أعداء المسلمين هم المسلمون وان المسلم إذا أراد ان يخدم ملته او وطنه وقد يخشى ان يبوح بالسر من ذلك لأخيه إذ يَحْتَمِل ان يذهب هذا إلى الاجانب المحتلين فيقدم لهم بحق أخيه الوشاية التي يرجو بها بعض الزلفى . وقد يكون أمله بها فارغاً ^(٣) .

(١) هكذا في الاصل ومعنى يستحقون هنا يستوجبون على قول الفارابي واللام في الاسلام للتقوية والمراد به المسلمون . والمعنى يستوجبون جرائمهم تمحيص المسلمين في جملتهم ليميز الله الخبيث من الطيب . ويفسر ما بعده وهو مستنبط من قوله تعالى في سياق غزوة أحد :

وَلِيُمْتَحِنَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ .

فليراجع السياق من سورة آل عمران وتفسيره المؤثر في الجزء الرابع من تفسير النار (ر) .

(٢) الروم ٤١ ،

(٣) لم يخل بلد من بلدان الاسلام من هؤلاء الخائنين الذين تجعلهم دول الاستعمار مطايا لها في الاستيلاء على تلك البلدان وهم يسمون بين ايديها في كل دسيسة ويدلون على عورات المسلمين وما ينكرون انهم بهذا العمل يخونون انفسهم وما يشعرون انهم اشبه بن يصعد على الشجرة =

ولله در الملك ابن سعود حيث يقول : ما أخشى على المسلمين إلا من المسلمين ، ما أخشى من الأجانب كما أخشى من المسلمين (١) .

وهو كلام اصاب كبد الصواب ، فانه ما من فتح فتحه الأجانب من بلاد المسلمين إلا كان نصفه او قسم منه على أيدي أناس من المسلمين منهم من تجسس للأجانب على قومه ، ومنهم من بث لهم الدعاية بين قومه ، ومنهم من سل لهم السيف في وجه قومه ، وأسأل في خدمتهم دم قومه .

فأين إسلامهم وإيمانهم من قوله تعالى :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (٢) وقوله : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ (٣) وقوله : إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ

= ويشرع يقطع جذعها من تحتها فيسقط هو عنها بما كسبت يدها . قال الله تعالى :

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِينَ لِيَمْلِكُوا فِيهَا وَمَا يَمْلِكُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (ش) .

(١) وقال في محفل حافل بججاج الاقطار - وقد طالبه مصري أزهرى بمحاربة الانكليز والفرنسيس المعتدين على المسلمين ذاكراً عداوتهم لهم - الانكليز والفرنسيس معذورون إذا عادونا لانه لا يجمعنا بهم جنس ولا دين ولا لغة ولا مصلحة ، ولكن المصيبة التي لا عذر لأحد فيها ان المسلمين اصبحوا اعداء انفسهم . وانا والله لا أخاف الاجانب وإنما أخاف المسلمين ، فلو حاربت الانكليز لما حاربوني إلا بجيش من المسلمين (ر) .

(٢) الحجرات : من الآية ١٠ .

(٣) المائدة : من الآية ٥١ .

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ^(١) وقوله : فَأَتَقُوا اللَّهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ^(٢) .

أفبمثل هذا تكون طاعة الله ورسوله ؟ أم بمثله تكون اخوة الايمان
وولايته وولاية أهله ؟

أو لمثل هؤلاء يعد الله العز والنصر والتمكين في الارض ، وهم سعاة بين
أيدي الأجانب على ملتهم ووطنهم وقومهم ؟ كلما عاتبهم الانسان على خيانة
اعتذروا بعدم إمكان المقاومة ، أو باتقاء ظلم الأجنبي ، أو بارتكاب أخف
الضررين ؟ وجميع أعذارهم لا تتكوى على شيء من الحق ، ولقد كانوا قادرين
أن يخدموا ملتهم بسيوفهم فان لم يستطيعوا فبأقلامهم ، فان لم يستطيعوا
فبأسننتهم ، فان لم يستطيعوا فبقلوبهم ^(٣) ، فأبوا إلا أن يكونوا بطانة
للأجانب على قومهم ، وأبوا إلا أن يكونوا رواداً لهم على بلادهم ، وأبوا إلا
أن يكونوا مطايا للأجانب على أوطانهم. وتراهم مع ذلك وافرير ناعمي البال ،
متمتعين بالهناء وصفاء العيش ، وهم يأكلون مما باعوا من تراث المسلمين ،

(١) المتحنة : ٩ .

(٢) الانفال : من الآية ١ .

(٣) اشارة الى حديث « من رأى منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه. فان
لم يستطع فقلبه. وذلك أضعف الايمان » رواه احمد ومسلم واصحاب السنن كلهم وهذا في وجوب
تغيير المنكرات يفعلها المسلم فماذا يقال في مقاومة هدم الإسلام من أساسه (ر) .

وينامون مستريحين . مثل هؤلاء ليس لهم وجدان يعذبهم من الداخل ولا نجد من المسلمين من يجرؤ ان يعذبهم من الخارج (١) .

لم نكن لنطلق الكلام اطلاقاً على العالم الإسلامي في هذا الموضوع ، فإن الأمة الافغانية مثلاً لا يمكن أحداً ان يخطب فيها في حب الأجانب علناً ويبقى حياً ، والنجديون لا يوجد فيهم من يجرأ أن يالئ الاجانب على قومه ، والمصريون قد ارتقت تربيتهم السياسية كثيراً عن ذي قبل فأصبحت مجاهرة أحدهم بالميل للأجنبي او تفضيل حكم الاجنبي خطراً عليه ، فأما في سائر بلاد الإسلام فمن شاء من المسلمين ان يخلع الرسن ويحاهر بالعصيان لعدو دينه وبلده فلا يخشى شراً ، ولا يحاذر قلقاً ولا أرقاً .

أفلمثل هؤلاء يقول الله تعالى :

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ
فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ
دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا
يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا (٢) .

حاشا لله تعالى ان يكون عنى هؤلاء « المسلمين » الذين يخونون ملتهم

(١) اما في فلسطين فقد تجرأ الجهاديون اخيراً على تمذيب الحائنين ولقي كثير من هؤلاء جزاءهم الاوفى وجاء الوقت الذي عرف فيه خائن قومه انه (لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم) فعسى ان يكون في ذلك عظة وعبرة لسائر العالم الاسلامى (ش) .

(٢) النور : ٥٥ .

ويسعون بين يدي أعدائها ويناصبون إخوانهم العداوة ابتغاء مرضاة الأجانب والحصول على دنيا زائلة وحطام فان ، كيف وقد قرن الإيمان بلازمة وهو عمل الصالحات ؟ بثسبا شروا به أنفسهم . وكذلك لا يعني الله بهؤلاء المسلمين الذين إن لم يكونوا خامروا على قومهم ، وسعوا بين أيدي الأجانب في خراب أمتهم ، وأوطأوا مناكبهم لركوب الغريب الطامح ، فانهم اكتفوا من الاسلام بالركوع والسجود ، والارزاد والاذكار ، وإطالة السبحة والتلوم في السجدة ، وظنوا ان هذا هو الاسلام ، ولو كان هذا كافيًا في اسلام المرء وفوزه في الدنيا والآخرة لما كان القرآن ملآن بالتحريض على الجهاد، والإيثار على النفس ، والصدق والصبر ، ونجدة المؤمن لأخيه ، والعدل والاحسان ، وجميع مكارم الاخلاق . ولو كان هذا كافيًا لأجل التحقق بالاسلام لما قال الله تعالى :

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ أُقْتِرْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١)

أفقد إخواننا الشيخ بسيوني عمران او غيره ان يقول ان المسلمين اليوم

(١) راجع تفسير الآية - وهي في سورة التوبة ٢٤ - وما قبلها في ص ٢٢٤ : ٢٤٢ ج ١٠ من تفسير المنار (ر) .

— إلا النادر الأندر والكهريت الأحمر— يفضلون الله ورسوله على آبائهم وأخوانهم
وأزواجهم وتجارهم وأموالهم ومساكنهم أو يؤثرون حب الله ورسوله— وإنما
حب الله ورسوله إقامة الاسلام — على الجزء اليسير من أموال اقتترفوها
وتجارة يخبثون كسادها ؟

لنعمل هذه التجربة ، فبضدها تبتين الأشياء .

الموازنة بين المسامين والنصارى في البذل لنشر الدين :

لنفرض ان مسألة تنصير البربر دخلت في طور النجاح ، وانتدب البابا
الكاثوليكين الذين في العالم لبذل الاموال اللازمة لهذا التحويل الذي تتوخاه
فرنسة في البربر من دين الاسلام الى دين النصرانية ، فكم مليوناً تظن من
الجنهيات يدر على المبشرين والرهيسان والراهبات لبناء الكنائس والمدارس
والملاجىء والمستشفيات ومراكز الاسقفيات وما اشبه ذلك لاتمام هذا العمل
الذي تضم به الكتلكة ثمانية ملايين من البرابر الى الاربعمائة مليون كاثوليكي
الذين في العالم ؟

لا شك ان الجواب يكون : عدة ملايين تجمع في بضعة اشهر . فان قيل
للبروتستانتين تعالوا فتمد أذنا لكم في تنصير البرابرة فابذلوا في هذه السبيل
ما امكنكم ، فانها تدر حينئذ الملايين بقدر ضعفي ما يدر من الكاثوليكين
وفي مدة اقصر من المدة التي يجمع فيها المال الذي يوجد به هؤلاء .

فلنقل للمسلمين : ان البرابرة صاروا على شفا الخروج من الاسلام ، وان
الاس في هذا الصبوء عن دين الاسلام هو الجهل . فعلينا ان نرسل اليهم علماء
ووعاظاً ليتفقهوا في الدين ، وأن نبني لهم المساجد والمدارس والكتاتيب
والملاجىء الى غير ذلك من الوسائل التي تمسك بحجزاتهم عن مفارقة الاسلام
والمسلمين .

فكم تظن المبلغ الذي يجود به المسلمون بعد اللتيا والتي لهذا العمل؟ لا أظن أنهم يجودون بما يتجاوز جزءاً من مائة مما يبذله الكاثوليك أو البروتستانت (١) .

فهذه هي حماية المسيحيين على دينهم ، وهذه هي حماية المسلمين .

ومن الناس من يسأل عن اسباب انحطاط المسلمين وقصورهم عن مباراة سوام ، فلو تأمل في هذه الفروق في النهضة والحماية لوجد عندها الجواب الكافي .

ومن اغرب الامور ان نرى الاوروبيين ودعاتهم وتلاميذهم من الشرقيين بعد هذا كله يتهمون المسلمين بالتعصب الديني وينبذونهم بلقبه ، وينتحلون لانفسهم التساهل في الدين ! ان هذا والله لعجب عجاب .

وها أنذا الآن في كتابتي هذه التي معناها الدفاع لا التجاوز ، والاستاذ الاكبر صاحب المنار ، وعبد الحميد بك سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين وغيرنا من المدافعين عن حق الاسلام والرجال الذين يبغون منع الاعتداء على الاسلام وينادون المسلمين لينتقبوا للخطر المهدق بهم - متهمون بالتعصب الديني ومنبوزون بهذه الكلمة ، لا بين غير المسلمين فقط ، بل بين المسلمين

(١) شاع ان المنبوذين من الهنود يريدون فراق مذهب الهنادك وان منهم من شرح الله صدره للاسلام فأرسل الاستاذ الاكبر شيخ الازهر وفداً من علماء الشريعة الى الهند ليتحقق هل ثمة أمل في هداية المنبوذين هؤلاء ام ذلك نفخ في غير ضرر وعلم السلوت في مشارق الارض ومقارها خبر ارسال هذه البعثة الازهرية الى الهند ولم تتحرك همه واحده منهم الى تخصيص ما يوازي القطمير لأجل هداية هؤلاء المنبوذين الذين يزيد عددهم على ستمين مليوناً . هذا بينما المبالغ التي يجمعها المسيحيون في كل عام لأجل تغذية التبشير المسيحي في آسيا وافريقية تقدر بعشرين الى ثلاثين مليون جنيه فهل تطمع هذه الأمة ان تجاري تلك الأمة؟ وبينهما كل هذا الفرق (ش) .

الجغرافيين ايضاً - أعني الذين يتباهون بأن سياستهم « لا دينية » وطالما صرحوا بأنهم لا يقيمون للدين وزناً ، وطالما تزلفوا الى المسيحيين بكونهم هم لا يدافعون عن الدين الاسلامي كما يدافع زيد وعمرو... وهؤلاء فئة معروفة يعرفهم الناس وهم يعرفون انفسهم ولو فكر المسيحيون في شأنهم لعلموا انهم ليسوا على شيء وانهم لا يستحقون الاحترام منهم لان الذي يتزلف الى الناس بمثل هذه الطرق حري بأن لا يكون اهلاً للثقة ولا للكرامة ، وما يزين المرء شيء مثل الاستقامة واستواء الباطن والظاهر .

فالمسلم اذاً لا يخلص من لقب « متعصب » إلا اذا سمع ان الفرنسيين يحاولون تنصير البربر فمر بذلك كأن لم يسمع شيئاً ، وإلا اذا سمع ان الهولانديين نصرروا مائة الف - وقد زعم أحد نواب البرلمان الهولاندي انهم فازوا بتنصير مليون مسلم من مسلمي الجاوى - وهز كتفه قائلاً: انا لا يهمني أكان الجاوي مسلماً ام مسيحياً... - هنالك « المسلم » يصير « راقياً » ويعمد « عصرياً » ويصير محبوباً ويقال فيه كل خير!؟

وأما الاوروبي فله ان يبذل القناطر المقتنطرة على بث الدعاية المسيحية بين المسلمين ، وله ان يحميها بالمدافع والطائرات والدبابات ، وله ان يحول بين المسلمين ودينهم بالذات وبالواسطة ، وله ان يدس كل دسياسة ممكنة لهدم الاسلام في بلاد الاسلام ، وليس عليه حرج في ذلك ، ولا يسلبه هذا العمل صفة « راق » و « متمدن » و « عصري » وأغرب من هذا انه لا يسلبه نعت « مدني » و « لاديني » و « متساهل » .

وهؤلاء « المسلمون الجغرافيون » برغم هذه الشواهد الباهرة للأعين ، وبرغم ما عملته جمهورية فرنسة « اللا دينية » في قضية البربر لما كرب دينية كاثوليكية ، وبرغم حماية هولاندة لمبشمري الانجيل في الجاوى ، وبرغم قرار

الحكومة البلجيكية رسمياً إكمال تنصير اهل الكونغو^(١) ، وبرغم منع الإنكليز في الاوغاندا وفي دار السلام - وكذا السودان - من بث الدعاية الاسلامية بين الزوج ، وبرغم امور كثيرة لا يسعنا الآن شرحها ، لا يزالون يخذعون المسلمين قائلين لهم: ان اوروبة قد رفست الدين برجلها وصارت على خطة لا دينية وبذلك قد اتسق لها الرقي ونجحت ونحن لن نفلح ما دمنا سائرين على خطة اسلامية^(٢) .

قد قام ببث هذه السفسطة أناس في تركيا ووجدوا من تلقاها بالقبول عدداً كبيراً . وترى أناساً في مصر والشام والعراق وفارس يقولون بها ويكابرون في المحسوس ولا يباليون ، لانهم يجدون على كل الاحوال من الاغرار من يصدقهم .

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
الْصُّدُورِ^(٣) .

(١) أهل الكونغو ١٢ مليوناً من النفوس كانوا جميعهم قتيشين فلما استولى البلجيكيون على الكونغو قرروا تنصيرهم ورأيت من عدة سنوات برنامج حكومة بلجيكا فاذا من جملة أركانها تنصير أهل الكونغو وبالفعل تنصر من زوج الكونغو نحو من مليون ونصف الى الآن ولما كان المسلمون قد دخلوا الى الكونغو من مدة طويلة فأقبل الأهالي هناك على الاسلام حتى بلغ عدد المسلمين في الكونغو ١٥٠ الف نسمة خشيت بلجيكا انتشار الاسلام في تلك المستعمرة وصارت تعارض نموه فيها وتطرد المسلمين وتضيق عليهم ولم تبال بما في ذلك من الخلل بمبدأ الحرية الدينية ولا سمحت لومة لائم (ش) .

(٢) وقد صدقوا لكن بمعنى اننا لن نفلح ما دمنا على هذه الخطة التي نكذب بتسميتها اسلامية وانما نفلح اذا قمنا بحقوق اسلامنا كما يقومون بحقوق دينهم او أشد (ر) .

(٣) الحج : من الآية ٤٦ .

اهم اسباب تاخر المسلمين

من اعظم اسباب تاخر المسلمين الجهل ، الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخير والخل ، فيقبل السفسطة قضية مسلمة ولا يعرف ان يرد عليها .
ومن اعظم اسباب تاخر المسلمين العلم الناقص ، الذي هو اشد خطراً من الجهل البسيط ، لان الجاهل إذا قبيض الله له مرشداً عالماً اطاعه ولم يتفلسف عليه ، فأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري ، وكما قيل :

إبتلاؤكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون ، اقول :
إبتلاؤكم بجاهل ، خير من ابتلائكم بشبه عالم .

ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الاخلاق ، بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن ، والعزائم التي حمل عليها سلف هذه الأمة وبها ادركوا ما أدركوه من الفلاح ، والأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف ، والله در شوقي إذ قال :

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ
فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

ومن اكبر عوامل تقمقر المسلمين فساد أخلاق أمراءهم بنوع خاص، وظن هؤلاء - إلا من رحم ربك - ان الأمة خلقت لهم ان يفعلوا بها ما يشاؤون، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى إذا حاول محاول ان يقيمهم على الجادة بطشوا به عبرة لغيره .

وجاء العلماء المترلفون لأولئك الامراء ، المتقلبون في نعماتهم ، الضاربون بالملاعق في حلوائهم ، وافتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح بحجة انه شق عصا الطاعة ، وخرج عن الجماعة .

ولقد عهد الاسلام الى العلماء بتقويم أود الامراء . وكان قديماً في الدول الاسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية في هذا العصر، يسيطرون على الأمة ، ويسددون خطوات الملك ، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة ، ويهييئون بالخليفة فمن بعده الى الصواب .

وهكذا كانت تستقيم الامور ، لان اكثر أولئك العلماء كانوا متحققين بالزهد ، متحلين بالورع متخلين عن حظوظ الدنيا ، لا يهمهم أغضب الملك الظالم الجبار أم رضي فكان الخلائف والملوك يرهبونهم ، ويخشون مخالفتهم ، لما يعلمون من انقياد العامة لهم ، واعتقاد الامة امامتهم، إلا انه بمرور الايام خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للعيش ، وجعلوا الدين مصيدة للدينس ، فسوغوا للفاسين من الامراء اشنع موبقاتهم ، وابعاهوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين ، هذا والعمامة المساكين تخدعون بعظمة عمامهم هؤلاء العلماء ، وعالو مناصبهم ، يظنون فتياهم صحيحة وآراءهم موافقة للشريعة ، والفساد بذلك يعظم ، ومصالح الأمة تذهب ، والاسلام يتقمقر ، والعدو يعلو ويتنمر ، وكل هذا اثمه في رقاب هؤلاء العلماء (١) .

(١) وفيما هذه المسألة بحقها في النار وأهمه مقالة في المجلد التاسع (ص ٣٥٧) هنوانها (حال المسلمين في العالين . ودعوة للعلماء الى نصيحة الملوك والامراء والسلاطين) انحيناً فيها - باللائمة على علماء هذا العصر لتقصيرهم في نصيحة الملوك والامراء ، ويليهما آثار عن السلف في ذلك نشرت في عدة اجزاء من هذا المجلد (ر) .

ومن اعظم عوامل تقهقر المسلمين الجبن والهلع ، بعد ان كانوا اشهر الأمم في الشجاعة واحتقار الموت ، يقوم واحدهم للعشرة وربما للمائة من غيرهم ، فالآن اصبحوا الا بعض قبائل منهم يهابون الموت الذي لا يجتمع خوفه مع الاسلام في قلب واحد . ومن الغريب ان الافرنج المعتدين لا يهابون الموت في اعتدائهم ، هيبة المسلمين اياه في دفاعهم ، وان المسلمين يرون الغايات البعيدة التي يبلغها الافرنج في استحقار الحياة والتهافت على الهلكة في سبيل قوميتهم ووطنهم ، ولا تأخذهم من ذلك الغيرة ولا يقولون نحن أولى من هؤلاء باستحقار الحياة ، وقد قال الله تعالى :

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ (١) .

وقد انضم الى الجبن والهلع اللذين اصابا المسلمين اليأس والقنوط من رحمة الله ، فمنهم فئات قد وقر في انفسهم ان الافرنج هم الأعلون على كل حال (٢) وانه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه ، وان كل مقاومة عبث ، وان كل مناهضة خرق في الرأي ، ولم يزل هذا التهيب يزداد ويتمخرف في صدور المسلمين أمام الأوربيين الى ان صار هؤلاء ينصرون بالرعب ، وصار الأقل منهم يقومون للأكثر من المسلمين . وهذا بعكس ما كان في العصر الاول :

يَرَى الْجَبِينَ أَنْ الْجَبْنَ حَزْمٌ
وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّئِيمِ

(١) النساء : من الآية ١٠٤ .

(٢) والله يقول : (ولا تهتوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون وان كنتم مؤمنين) .

نسي المسلمون الأيام السالفة التي كان فيها العشرون مسلماً لا غير يأتون من (برشلونة) الى (فراكسية) من سواحل فرنسة ويستولون على جبل هناك وبينون به حصناً ويتزايد عددهم حتى يصيروا مئة رجل فيؤسسون هناك امارة تعصف ريحها بجنوبي فرنسة وشمالى ايطالية ، وتهادنها ملوك تلك النواحي وتخطب ولاءها ، وتستولي على رؤوس جبال الألب ، وعلى المعابر التي عليها الطرق الشهيرة بين فرنسة وايطالية ، لا سيما معبر سان برنار الشهير ، وتقتصر جميع قوافل الافرنج ان تؤدى للعرب المكوس لاجل المرور ، تتقدم هذه الدولة العربية الصغيرة في بلاد (البيامون) مسافات بعيدة الى ان تبلغ سويسرة وبحيرة (كونستازره) في قلب أوروبا وتضم القسم العالى من سويسرة الى املاكها وتبقى خمساً وتسعين سنة مستولية على هذه الديار الى أن تتألب الامم الافرنجية عليها ، ولا تزال تناجزها الى ان استأصلتها ، وكانت تلك العصابة العربية يوم انقرضت لا تزيد على الف وخمسمائة رجل^(١) (وقد نشرنا تفصيل خبرها في المجلد ٢٤ من المنار) .

شبهات الجهاد الجبناء وردها :

من السخفاء من يقول نعم قد كان ذلك ، لكن قبل أن يخترع الافرنج آلات القتال الحديثة ، وقبل المدافع والدبابات والطائرات ، وقبل ان يصير الافرنج الى ما صاروا اليه من القوة المبنية على العلم . وهذا القول هو منتهى السخف والسفه والحماسة ، فان لكل عصر علماً وصناعة ومدنية تشاكله ، وقد كانت في القرون الوسطى علوم تشاكلها كما هي العلوم والصناعات والمدنية الحاضرة في هذا العصر . وامور الخلق كلها نسبية ، ولقد كانت في العصر الذي نتكلم عنه آلات قتال ومنجنيمات ودبابات ونيران

(١) يجد القارئ تفاصيل هذه الغزوات في كتابنا « غزوات العرب في سويسرة وجنوبي فرنسة وشمالى ايطالية وجزائر البحر المتوسط » المطبوع من خمس سنوات .

مركبة تركيبياً مجهولاً اليوم، وكانت في ذلك الوقت كما هي المدافع والرشاشات وقنابر الديناميت وما أشبه ذلك في هذه الأيام .

على انه ليست الدبابات والطائرات والرشاشات هي التي تبعث العزائم ، وتوقد نيران الحمية في صفوف البشر ، بل الحمية والعزيمة والنجدة هي التي تأتي بالطائرات والدبابات والقنابر . وما هذه إلا مواد صماء لا فرق بينها وبين أي حجر ، فالمادة لا تقدر ان تعمل شيئاً من نفسها ، وإنما الذي يعمل هو الروح ، فساذا هبت أرواح البشر وتحركت عزائمهم فعند ذلك نجد الدبابات والطائرات والرشاشات والغواصات وكل اداة قتال ونزال على طرف النمام .

يقولون : الا ان هذا ينبغي له العلم الحديث ، وهذا العلم مفقود عند المسلمين ، فلذلك أمكن الافرنج ما لم يمكنهم .

(والجواب) ان العلم الحديث ايضاً يتوقف على الفكرة والعزيمة ، ومضى وجدت هاتان وجد العلم الحديث ووجدت الصناعة الحديثة . أفلا ترى ان اليابان الى حد سنة ١٨٦٨ كانوا أمة كسائر الأمم الشرقية الباقية على حالتها القديمة ، فلما أرادوا اللحاق بالأمم العزيزة تعلموا علوم الاوروبيين ، وصنعوا صناعاتهم ، واتسق لهم ذلك في خمسين سنة وكل أمة من أمم الاسلام تريد ان تنهض وتلحق بالاسم العزيزة يمكنها ذلك وتبقى مسلمة متمسكة بدينها ، كما ان اليابانيين تعلموا علوم الاوروبيين كلها وضارعوهم ولم يقصروا في شيء عنهم ولبثوا يابانيين ولبثوا متمسكين بدينهم واوضاعهم . وايضاً فمضى ارادت أمة مسلمة أدوات أو أسلحة حديثة ولم تجدها ؟ ان ملاك الامر هو الارادة فمضى وجدت الارادة وجد الشيء المراد .

فلو ان أمة من أمم الاسلام أرادت أن تتسلح لوجدت السلاح الحديث اللازم بأنواعه وأشكاله من ثاني يوم . ولكن اقتناء السلاح ينبغي له سخاء

بالاموال ، وهم لا يريدون ان يبذلوا ، ولا ان يقتدوا بالافرنج واليابان في البذل ، بل يريدون النصرة بدون سلاح وعتاد ، أو السلاح والعتاد بدون بذل أموال ، وإذا تغلب العدو عليهم من بعد ذلك صاحوا قائلين : أين المواعيد التي وعدنا اياها القرآن في قوله :

وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ^(١) .

كان القرآن ضمن للمؤمنين النصر بدون عمل وبلا كسب ولا جهاد بالاموال والانفس ، بل بمجرد قولنا اننا مسلمون ، او بمجرد الدعاء والتسبيح؟ وأغرب من ذلك بمجرد الاستغاثة بالاولياء ، فأصبح الكثير من المسلمين وهم عزل من السلاح الحديث وهم غير مجهزين بالعلم اللازم لاستعماله لا يقومون للاقتيل من الافرنج المسلحين المجهزين ، وصاروا إذا التقى الجمعان تدور الدائرة في اغلب الاحيان على المسلمين . فتوالى هذا الأمر عليهم مدة طويلة الى ان فقدوا كل ثقة بنفوسهم ، واستولى عليهم القنوط ، ودب فيهم الرعب ، وألقوا بأنفسهم الى العدو وبعد ان كانوا مسلمين ، صاروا مستسلمين ، وقد ذهلوا عن قوله تعالى :

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .
 إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ
 نَادَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ ^(٢) .

(١) الروم : ٤٧ .

(٢) آل عمران : ١٣٩ ومن الآية ١٤٠ .

ونسوا أنه لا يجوز ان يتطرق اليأس الى قلب احد لا عقلا ولا شرعاً ،
ولا سياً المسلم الذي يخبره دينه بأن اليأس هو الكفر بعينه . وغفلوا عن
قوله تعالى في سلفهم :

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَأَنْقَلَبُوا
بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ . (الآيات^(١))

فتجدهم إذا استنهضتهم لمعاونة قوم منهم يقاتلون دولة اجنبية تريد
لتمحوهم كان اول جواب لهم : أية فائدة من بذل أموالنا في هذا السبيل
وتلك الدولة غالبية لا محالة ؟ ولو تأملوا لوجدوا ان الاستسلام لا يزيدهم إلا
وبلاء ، ولا يزيد العذر إلا استبداداً وجبروتاً : سنة الله في خلقه . ولو
فكروا قليلاً لرأوا ان هذا الشح بالمال على اخوانهم الذين في مواطن الجهاد لم
يكن توفيراً وإنما كان هو الفقر بعينه ، لان الأمة المستضعفة لا تعود حرة في
تجارتها واقتصادياتها ، بل يمتص العذر الغالب عليها كل ما فيه علالة رطوبة
في ارضها ، ولا يترك للأمة المستضعفة إلا عظاماً يتمششونها ، من قبيل
« قوت لا يموت » وكثيراً ما تحصل مساعب ويموتون جوعاً كما يقع كثيراً في
جزائر الغرب والهند وغيرهما ، ترى الجماعات واقعة في الهند ولا يموت
منها ولا انكليزي وتراها تشتد في الجزائر ولا يموت بها إلا المسلم^(٢) . وما

(١) الآيتان : ١٧٣ و ١٧٤ من آل عمران .

(٢) ضمن المسلمين بالأموال على القضايا العامة هو الذي مثل حركتهم السياسية وقت في عضد
قوميتهم الى ان صارت الامم الغالبة على أمرهم لا تحسب لهم أذنى حساب ولو كانت تحسب لهم
حساباً ما كان الفرنسيين انتزعوا منهم أملاكهم في الجزائر حتى صار ه ٧ في المائة منها ملكاً =

السبب في ذلك إلا أن الاجانب قد استأفروا بخيرات البلاد ولم يتركوا للمسلمين الا الفقر . فقام المسلمون اليوم يعتمدون عن عدم بذل الاموال لمساعدة اخوانهم بعدم وجودها ، وهذا صحيح الى حد محدود ، وذلك انهم بخلوا بها في الاول فجنوا من بخلهم على الجهاد الذل والخنوع اولاً ، والفقر

= للفرنسيين وصار ثلث اراضي تونس ملكاً لخمسين الف افرنسي مع ان الاهالي هم مليونان ونصف مليون مسلم يملكون الثلثين لا اكثر ، وايضاً لما كانت فرنسا ابتزت اهالي المغرب الاقصى ثمانمائة الف هكتار وسلحتها للمستعمرين الافرنسيين ، ولما كانت فرنسا تنفق ثلاثة ارباع ميزانية المغرب المالية على ١٩٠ الف افرنسي وتنفق الربع الباقي على مسلمي المغرب مع انهم سبعة ملايين نسمة ومع ان ٨٠ في المائة من ميزانية المغرب هي من اموال المسلمين كما اثبتنا ذلك بالارقام نقلنا عن جريدة الحماية الرسمية التي لا يقدر الفرنسيون ان يكابروا فيها وهي ميزانية عدة سنين لا سنة واحدة وقد نقلنا تلك الميزانيات كلها عن جريدة الحماية الرسمية المطبوعة في الرباط الى مجلتنا « لاسيون آراب » ودعونا الناس الى تأمل هذا الحيف الفظيع الواقع على المسلمين الذين يتمتعون بالفرنسي الواحد من ميزانياتهم اكثر مما يتمتع به ستون مسلماً .

وأغرب من ذلك ان الواحد من يهود المغرب فضلاً عن الفرنسيين يستفيد من الميزانية الغربية اكثر من اربعين مسلماً واغرب منه انه من هذه الميزانية التي اربعة اقسامها من جيوب المسلمين يأخذ المبشرون والقسوس دعاة النصرانية مئات الوف من الفرنكات لاجل بث المسيحية بين البربر المسلمين وهذا على نسق اعطاء مبشري النصرانية في السودان المصري إعانات من اموال المسلمين، فلولا هوان المسلمين على دول الاستعمار وكون هذه لا تقم وزناً ما كانوا يستخفون بهم الى هذا الحد الأقصى ولا كان عند الفرنسيين الاربعمون مسلماً يهودي واحد ولا الستون مسلماً بافرنسي واحد ، ولقد تحديناهم مراراً ان يجيبونا عن هذا الظلم الفاحش فما اجابونا بغير الطعن والقذف والتهمة لنا بعداوة فرنسا كأن الانسان لا يمكن ان يكون صديقاً لفرنسا الا اذا أهدر في سبيلها جميع حقوق قومه وهذا من اغرب الغرائب .

ولو تأملوا قليلاً لعلموا ان نصحننا لهم بانصاف المسلمين هو نصح عائد الى مصلحتهم وان المصالح لا يشير عليهم باستجلاب قلوب المسلمين ابدأ وإنما يريدنا حامية بين الفريقين الى ما شاء الله (ش) .

والجوع ثانياً . فان من سنن الله في أرضه ان الذل يردفه الفقر ، وان العز
يردغه الثراء ، والمثل العربي يقول : من عز بز ، والشاعر العربي
الايادي يقول :

لَا تَذْخِرُوا الْمَالَ لِلْأَعْدَاءِ إِنَّهُمْ
إِنْ يَظْهَرُوا يَأْخُذُوكُمْ وَالتَّلَادَ مَعَا
هَيْهَاتَ لَا خَيْرَ فِي مَالٍ وَفِي نِعَمٍ
قَدْ أَحْتَفَظْتُمْ بِهَا إِنْ أَنْفَكُمْ جَدَعَا

والمتمني يقول :

فَلَا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ
وَلَا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

فالمسلمون عز عليهم المال ففقدوه ، وعزت عليهم الحياة ففقدوها ، وأبى
الله إلا تصديق كلام النبي الموحى اليه حيث يقول : « يوشك ان تداعى عليكم
الأمم كما تداعى الأكلة على قصصها » قالوا أو من قلة فينا يومئذ يا رسول
الله ؟ قال : « لا ولكنكم غشاه كغشاه السيل يجعل الوهن في قلوبكم
وينزع من قلوب أعدائكم ، من حبكم الدنيا وكرهينكم الموت » .

هذا الحديث رواه لي الشيخ محمد بن جعفر الكتاني الفاسي رحمه الله يوم
لقيته في المدينة المنورة منذ خمس وعشرين سنة ، ثم قرأته في الكتب
واستشهدت به في مقدمة حاضره العالم الاسلامي ، وألفاظه تختلف في رواية

عن رواية . فالاستاذ صاحب المنار امتع الله بطول حياته هو الأدرى بأصح رواياته ^(١) ومعناه ظاهر وهو : أن المسلمين يأتي عليهم يوم يصيرون فيه

(١). الحديث رواه ابو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوة عن ثوبان مرفوعاً بلفظ « يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الأكلة الى قصعتها » فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال (ص) « بل انتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوك المهابة منكم . وليقذفن في قلوبكم الوهن » - قال قائل : يا رسول الله وما الوهن قال « حب الدنيا وكرهية الموت » .

قوله (ص) « تداعى » اصله تتداعى أي تجتمع ويدعو بعضها بعضاً لسلب ملككم كما تتداعى الاكلة وهي جمع آكل - كالفعللة جمع فاعل - الى قصة الطعام والغثاء بالضم ما يحمله السيل ويلقيه من الزبد والعميدان ونحوها ويضرب مثلاً لما لا قيمة له ولا فائدة، والوهن بالنون الضعف، وإنما سأله السائل عن سببه فأجابته (ص) بأن سببه حب الحياة الدنيا ولذاتها الحسيسة وإيثارها على الجهاد في الدفاع عن الحقية وإعلاء كلمة الله ، وكرهية الموت ولو في سبيل الحق حرصاً على هذه الحياة الحسيسة .

وقد اوردت هذا الحديث في تفسير قوله تعالى : (الانعام : آية ٦٥) .

قُلْ هُوَ التَّقَادِيرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسِكُمْ سِيعًا وَيُزِدِكُمْ بَعْضَكُمْ مِّنْ بَعْضٍ .

وأوردت قبله حديث ثوبان الآخر الذي رواه مسلم في صحيحه قال رسول الله (ص) « ان الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وان امتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، واعطيت الكثرين الأحمر والأبيض ، واني سألت ربي لأمتي ان لا يهلكها بسنة عامة ، وان لا يسلط عليها عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم (أي ملكهم وسلطانهم ومقر قوتهم) وان ربي قال لي : يا محمد اذا قضيت قضاء فانه لا يرد ، واني اعطيتك لأمتك ان لا اهلكهم بسنة عامة (أي قحط) وأن لا اسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين اقطارها - حتى يكون بعضهم هلك بعضاً ويسبي =

مأكلة وتمتد اليهم الايدي من كل جهة ، فهذا العصر الذي نحن فيه هو ذلك اليوم ، وان المسلمين لا يكون عيبتهم يوماً قلة الكثرة بنفسها لا تفيد ان تقترن بجودة النوع والكمية التي لا تغني عن الكيفية (١) ، وعلة العلل في ضعف المسلمين ذلك اليوم هو الجبن والبخل ، صريح ذلك في قوله ﷺ « من حبتكم الدنيا وكراهيتكم الموت » (٢) .

= بعضهم بعضاً» ورواه احمد واصحاب السنن الا النسائي بزيادة على رواية مسلم هذه ، وكلا الحديثين من اعلام النبوة التي ظهر بها صدقه (ص) بعد قرون من وفاته ورفع روحه الى الرفيق الاعلى ، فما ذهب شيء من ملك المسلمين الى أيدي الاجانب الا بخذلان بعضهم لبعض ومساعدتهم للأجانب على انفسهم ، وفي هذه الرسالة الأمير شكيب بعض الشواهد من مسلمي هذا العصر على ذلك . وراجع الموضوع بتفصيله في تفسير الآية المشار اليها من ص ٤٩٠ - ٥٠١ ج ٧ تفسير (ر) .

(١) عدد المسلمين اليوم مسا ينيف عن ستاية مليون فيما لها من قوة لو كان جميعهم رجالاً كالرجال المتغلبين عليهم (ش) .

(٢) نعم يخشى المسلمون دول الاستعمار فيطيعونها حتى على آباءهم وابنائهم وأعز الناس لديهم وأغلى الأمور عليهم وعلى دينهم ووطنهم وقوميتهم وثقافتهم وان سألتهم عن اسباب هذه الطاعة العمياء قالوا لك اننا ان لم نطعمهم أهلكتونا ونحن لا قبل لنا بمقاومتهم ونسوا انهم عندما تقذف بهم دول الإستعمار في حروبها يلاقون فيمها الموت الذي لم يكونوا ابلقوا اعظم منه لو كانوا عسوها .

‘قُلْ إِنَّ السَّمَوَاتِ السُّدْرِي تَغِيرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِكُمْ’ .

ولعمري ان تمثيل هذه الحالة الروحية التي نخجدها عند المسلمين الخاضعين لدول أوروية المستعمرة ليتعذر على فطس اطباء الاجتماع جميعاً اذ لا يمكن ان يعقل صنفان من الموت أحدهما حر المذاق لا تقوى على مواجهته النفس وهو الموت في مقاومة الاجنبي المتغلب والثاني مقبول الطعم سهل الاقتحام وهو الموت في مقاتلة عدو ذلك المتغلب . لا جرم ان هذه حالة روحية شاذة لا تفسر ولا تعمل إلا بالمرض وعدم اعتدال المزاج وكون الرعب المستمر الذي اوقعه =

ومن المعلوم ان الافراط في حب الدنيا يحرم الانسان التمتع بها وان الغلو في

= في قلوبهم الاجنبي المتغلب انتهى بأن أوجد في نفوسهم هذه الحالة الغريبة التي لم أجد لها شبيهاً في التاريخ الا ما كان منهم يوم زحف التتار المغوليين الى بلاد الاسلام ونسفوا تلك الحضارات الزاهرة التي كانت في تركستان وإيران والعراق وذبجوا الملايين من اهلها ذبح الشياه ودمروا بغداد دار الخلافة وأهلكوا الخليفة المستعصم العباسي تحت أرجل الفيلة وجعلوا من جاجم القتلة أكماً عالية فوصل الرعب بقلوب المسلمين الى ان صار المغولي الواحد يدخل على المائة منهم فيقتلهم جميعاً وأسلحتهم في أيديهم ولا تحذتهم نفوسهم بأدنى مقاومة ولا يقال لثل هذا انه مجرد انكسار قوى معنوية بل هو ابعد مدى من هذا بكثير فان انكسار القوى المعنوية لا يسلب المغلوب كل آثار النشاط للمقاومة وإنما كان ذلك مرضاً زاغت به الطبائع البشرية عن مركزها وعتها استولى على العقول وجردما من خواص الادراك . وقد حدث أحد المؤرخين برواية غريبة عن رجل شهد تلك الوقائع بعينه فقال ما معناه : فررت من التتار فساقتي القدر الى بيت وجدت فيه ثمانية عشر رجلاً كلهم تخبأوا فيه لطمهم ينجون من الموت فبينما نحن جالسون إذ دخل علينا احد التتار فرآنا جميعاً وعلى وجوهنا غبرة الموت ولم يكن معه سلاح يقتلنا به فقال لنا : ابقوا هنا حتى آتي بسكين وأذبحكم ومضى ليأتي بالسكين . فلما ذهب قلت للجماعة : ماذا تنتظرون ؟ قالوا : لا نتنظر شيئاً سوى الموت . فقلت لهم : كيف تنتظر الموت من يد رجل واحد ونحن عصابة ١٩ رجلاً ؟ قالوا : ماذا تريد أن نصنع ؟ قلت : نقتله . قالوا : لا تمتد ايدينا اليه لأننا نخاف . قلت : مم تخافون ؟ ان كان خوفكم من الموت فهو قائلكم على كل حال . قال : وما زلت أشجعهم الى ان اقتنع بكلامي اثنان منهم لا غير . فلما رجع المغولي وبيده السكين الذي يريد ان يقتلنا به هجمنا عليه نحن الثلاثة ونزعنا السكين من يده وقتلناه به وخرجنا ونجونا . هذا وبقي المسلمون في رعب من التتار غير ممكن التعليل الى ان خرجت اليهم العساكر المصرية في زمن الملك قطز ، فتلاقى الجمعان في عين جالوت من فلسطين وانهمز التتار هزيمة شعماء ثابت بعدها عزائم المسلمين اليهم واخذوا يفتكون بالتتار وصار هؤلاء عندهم كسائر الناس ولو لم يدخل التتار في الاسلام لكان المسلمون أبادوم .

وخلاصة القول ان المسلمين كلما آثروا السلامة ازدادوا موتاً وكلما احتقروا الحياة ازدادوا حياة والى هذا أشار الله تعالى في كتابه الكريم حين يقول :

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالًا كَثِيرًا إِذَا قِيلَ لَكُمْ ائْتِرُوا فِي =

المحافظة على الحياة تكون عاقبته زيادة التعرض للهلاك (١) هذه هي من سنن الله في خلقه او من النواميس الطبيعية كما يقال في هذا العصر فالقرآن يأمر المسلم بأن يحتمر الحياة والمال وكل عزيز في سبيل الله، ويأمر المسلم ان يثبت ولا يياس ، وان يصبر ولا يتزلزل مهما أصيب وتراه يقول :

وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِثْيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الصَّابِرِينَ (٢)

هكذا يريد الله ليكون المسلمون ، فان لم يكرنوا هكذا بصريح نص القرآن ، فكيف يستنجزون الله عداته بالنصر والتمكين والسماة والتأمين ؟

= سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قَلَّيْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ النُّحْيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ .
الآ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (ش) .

(١) ان الله تعالى يقول :

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ .

أي ان عدم اتفلكم في سبيل الله هو التهلكة بعينها . وقد اصابت المسلمين تهلكة عدم الاتفاق وصدق فيهم ما حذرهم الله منه (ش) .

(٢) آل عمران : ١٤٦ .

ضياح الاسلام بين الجامدين والجاهدين :

ومن اكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم ، فكما ان آفة الاسلام هي الفئة التي تريد ان تلغي كل شيء قديم ، بدون نظر فيما هو ضار منه او نافع ، كذلك آفة الاسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد ان تغير شيئاً ، ولا ترضى بادخال اقل تعديل على اصول التعليم الاسلامي ظناً منهم بان الاقتداء بالكفار كفر ، وان نظام التعليم الحديث من وضع الكفار .

فقد اضاع الاسلام جاحد وجامد .

أما الجاحد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم ، ويحملهم على إنكار ماضيهم ، ويحملهم شبه بالجزء الكيماوي الذي يدخل في تركيب جسم آخر كان بعيداً فيذوب فيه ويفقد هويته . وهذا الميل في النفس الى انكار الانسان لماضيه واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين ، وانه هو يريد ان يبرأ منهم لا يصدر إلا عن الفسل الخسيس ، الوضع النفس ، أو عن الذي يشعر أنه في وسط قومه دنيء الأصل ، فيسعى هو في انكار اصل أمته بأسرها لأنه يعلم نفسه منها بكان خسيس ليس له نصيب من تلك الأصالة ، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التي جعلت في كل أمة ميلاً طبيعياً للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى وغير ذلك إلا ما ثبت ضرره (١) .

محافظة الشعوب الافرنجية على قوميتها :

فلننظر الى اوروبة - لأنها هي اليوم المثل الأعلى في ذلك - فنجد كل

(١) قال المستر شميرلين ناظر خارجية انكلترا سابقاً: نحن الانكليز أمة تقليدية محافظة على القديم لا نرضى بتبديل شيء من اوضاعنا الا اذا ثبت ضرره ولم يبق مناص من تغييره (ش) .

أمة فيها تأبى ان تندمج في أمة أخرى. فالانكليز يريدون ان يبقوا انكليزاً، والافرنسيس يريدون ان يبقوا افرنسيساً ، والالمان لا يريدون ان يكونوا إلا الماناً ، والاطليان لا يرضون أن يكونوا إلا طلياناً، والروس قصارى مهمم أن يكونوا روساً ، وهلم جراً .

ومما يزيد هذا المثال تأثيراً في النفس ان الايرلنديين مثلاً أمة صغيرة مجاورة للانكليز وقد بذل هؤلاء جميع ما يتصوره العقل من الجهود ليدمجوهم في سوادهم مدة تزيد عن سبعمائة سنة ، فأبوا أن يصيروا انكليزاً ولبثوا ايرلنديين بلسانهم وعقيدتهم واذواقهم وعاداتهم .

وفي فرنسة نفسها تأبى أمة « البريتون » إلا أن تحافظ على أصلها . وفي جنوبي فرنسة جيل يقال لهم « الباشكنس » احتفظوا بقوميتهم تجاه القوط ، ثم تجاه العرب ، ثم تجاه الاسبان ، ثم تجاه الفرنسيس ، وجميعهم مليون نسمة . وهم لا يزالون على لغتهم وزيمهم وعاداتهم وجميع اوضاعهم .

والفلمنك يابون أن يجعلوا اللغة الافرنسية لغتهم والثقافة الافرنسية ثقافتهم ، ولم يزالوا يصيحوون في بلجيكا حتى اضطرت دولة بلجيكا الى الاعتراف بلغتهم لغة رسمية .

وفي سويسرة ثلاثة أقسام : القسم الالمانى وهو مليونان وثمانمائة الف والقسم المتكلم بالاطليانية وهو اكثر قليلاً من مائتي الف ، والقسم المتكلم باللغة الفرترسية وكل قسم منها محافظ على لغته وقوانينه ومنازعه مع انهم كلهم متحدون في مصالحهم السياسية وهم يعيشون في مملكة واحدة .

وان الدانمرك وبلاد الاسكنديناف وهولاندة فروع من الشجرة الالمانية لا مرأه في ذلك ، لكنهم لا يريدون الاندماج في الالمان ولا العدول عن قومياتهم . وبقي « التشيك » مثنين من السنين تحت حكم الالمان ونقوا

تشيكاً ، واستأنفوا بعد الحرب العامة استقلالهم السياسي ، بعد ان حفظوا
لسانهم واستقلالهم الجنسي مدة خمسة قرون .

وقد هذب الألمان أمة المجر وعلوم ورفقهم ولكنهم لم يتمكنوا من
ادماجهم في الألمانية ، فتجدم أحرص الأمم على لغتهم المفولية الاصلية وعلى
قوميتهم المجرية .

ولبثت الروسية العظيمة من مائتين الى ثلاثمائة سنة تحاول ادخال بولونية
في الجنس الروسي وحمل البولونيين على نسيان قوميتهم الخاصة بحجة ان العرق
السلافي يجمع بين البولونيين والروس ، ففشلت جميع مساعيها في ادماج
البولونيين فيها وعاد هؤلاء بعد الحرب العامة أمة مستقلة في كل شيء . وذلك
لأنهم لم يتخلوا طرفة عين عن قوميتهم .

وليس من المجهوب ان لا يريد أمة عدوها ٣٠ مليوناً الاندماج في غيرها .
ولكن الاستوانيين وهم مليونان فقط انفصلوا عن الروسية ولم يقبلوا الاندماج
فيها وأحيوا استقلالهم ولسانهم المفولي الأصل وجعلوا له حروفاً هجائية .
ومثلهم أهالي فنلاندة المنفصلون عن الروسية أيضاً .

وقد خابت مساعي الروس في إدماج الليتوانيين من هذه الأمم البلطيقية
في الجنس الروسي ، وانتفضوا بعد الحرب العامة أمة مستقلة كما كانوا مستقلين
قومياً ، وجميعهم أربعة ملايين . وأقل منهم جيرانهم الليتونيون (١) الذين هم
مليونان لا غير ، ومع هذا قد انفصلوا بعد الحرب وأسسوا جمهورية كسائر
الجمهوريات البلطيقية لأنهم من الأصل لبثوا محافظين على لغتهم وجنسهم .

(١) ليتوفيا هي غير ليتوانيا وكلتاها من الأمم التي انفصلت عن الروسية بعد الحرب العامة
لاختلاف جنسها عن جنس الروس (ش) .

وقد عجز الروس من جهة كما عجز الالمان من جهة اخرى عن ادخال هذه
الأقوام في تراكيهم القومية العظيمة لان كل شعب مها كان صغيراً لا يرضى
بانكار أصله ولا بالنزول عن استقلاله الجنسي .

وقد حفظ الكرواتيون استقلالهم الجنسي مع إحاطة أمتين كبيرتين بهم
هم اللاتين والجرمان .

وحفظ الصربيون استقلالهم الجنسي مع سيادة الترك عليهم منذ قرون .
ولم يزل الأرتاؤوط أرتاؤوطاً منذ عهد لا يعرف بدوه وهم بين أمتين
كبيرتين اليونان والصقالبة أي السلاف !

وكذلك البلغار أبوا إلا أن يبقوا بلغاراً فيما بين الروم والسلاف واللاتين .
ثم جامهم للترك فتعلموا التركية لكنهم بقوا بلغاراً .

ولا أريد ان اخرج في الاستشهاد عن اوروبة لأنني ان خرجت عن
اوروبة قالت تلك الفئة الجاحدة : نحن لا نريد ان نجعل قذوة لنا أمماً
متأخرة مثلنا .

فالأمم التي استشهدنا الآن بها كلها اوروبية ، وكلها متعلمة راقية ، وكلها
ذوات بلدان ممدنة منظمة ؛ وكلها عندها الجامعات والأكادميات والجمعيات
العلمية والجيش والأساطيل الخ ..

العبرة للعرب وسائر المسلمين برقي اليابانيين :

ولكنني اخرج من اوروبة الى اليابان فقط لأن رقي اليابان يضارع الرقي
الاوروبي وقد تم لليابان كما تم رقي اوروبة للاروبيين أي في ضمن دائرة
قوميتهم ولسانهم وآدابهم وحرمتهم ودينهم وشعائهم ومشاعرهم وكل
شيء لهم .

فأنقل الى القراء العرب فقرة من رسالة طويلة جاءت من مراسل اوروبي
سائح في اليابان وظهرت في جريدة « جرنال دوجنيف » بتاريخ ٢٠ اكتوبر
(١٩٣١) فانه يقول :

« ان الياباني يحب الفن قبل كل شيء ، وإن رأيتة ساعياً في كسب المال
فلأجل ان يلذذ بالمال اهواه المنصرفه الى الحسن والجمال . وقد انتقش في
صفحة نفسه الشعور القومي للشديد عدا الميل الى الجمال ، لأنه يفتخر بكون
اليابان في مدة ستين سنة فقط صارت من طور أمة في القرون الوسطى
اقطاعية الحكم الى أمة عظيمة من أعظم الأمم ، وبما لا ريب فيه ان الديانة
اليابانية هي ذات دور عظيم في سياسة اليابان (ليتأمل القارئ) وهي في
الحقيقة فلسفة مبنية على الاعتراف بكل ما تركه القدماء لسلائهم . فالياباني
العصري قد ائتلف مع جميع احتياجات الحياة العصرية ، لكن مع حفظ
الميل الدائم الى الرجوع الى ماضيه ومع التمسك الشديد بقوميته ، غير مجيب
نداء التفرنج (وفي الأصل التقرب Occidentalisme) الذي لا يريد الياباني
ان يأخذ منه إلا ما هو ضروري له لأجل مصارعة سائر الأمم بنجاح ، ولا
شك ان هذا مثال فريد في تاريخ أمم الشرق الاقصى . »

ثم يقول :

« كان اليابانيون يكرهون الاسفار الى البلدان البعيدة ، ويحظرون دخول
الاجانب الى بلادهم ، ولكن هذا المنع قد ارتفع بعد النهضة العصرية ،
وتلاقت اليابان ما فات بشكل مدهش . والنتائج هي أمامنا إلا أن الماضي
لا يزال عند اليابانيين مقدساً معظماً في جميع طبقاتهم لانه في هذا الماضي
المقدس يجد اليابانيون جميع شعورهم بقيمتهم الحاضرة ، فتراهم يكافحون
بوسائل المدنية الحديثة التامة التي لا سبيل الى الحياة بدونها في أيامنا هذه ،
لكن ينبذون كل « تغرب » بمجرد ما يجدون أنفسهم في غنى عنه ، ويعودون
مع اللذة الى شعورهم القومي الخالص الذي به يعتقدون انهم الأعلون . »

« وهناك هياكل « شنتو » ومعابد « زن » والهياكل البوذية وهي
مكرمة معظمة مخدومة بأشد ما يمكن من الحماسة الدينية والايان الثابت كما
كانت منذ قرون . والحق أن هذا الاحترام الشديد الذي يشعر به اليابانيون
لقديهم ولعבודاتهم هو الذي قام عندهم حصناً منيعاً دون المبادئ الشعبية ،
والافكار الشيوعية المضرة . »

ومنذ بضع سنوات ظهر في فرنسا تأليف جديد عن اليابان للمركز
(لا مازليير La Mazelière) قد اطنبت الجرائد في وصفه ونشرت عنه
جريدة (الديبا) مقالاً رناناً ، فنحن نوصي القراء الذين يهمهم ان يعرفوا
كيفية ارتقاء اليابان - وهو موضوع في غاية الجلالة لما فيه من الاستنتاج
لسائر بلاد الشرق - بمطالعة هذا الكتاب الذي لا يمكن ان ينسب الى مؤلفه
التعصب لليابان ، على اني رأيت في الجملة مطابقاً لتواريخ ألفها علماء يابانيون
متخصصون في التاريخ . وهذه التواريخ مترجمة من اليابانية الى الافرنسية .
ولا بد لي في هذه العجالة من نقل بعض فقر من تاريخ لامازليير المذكور .
قال في اثناء الكلام على تمدن اليابان العصري وخروج هذه الامة من عزلتها
القديمة ما يلي :

« فبدأت اليابان تستعير من اوروبا وامريكا قسماً من مدنيتهما المادية ،
ومن نظامها العسكري ، ومن مباحث تعليمها العام ، ومن سياستها المالية ،
فكان المحددون يجتهدون في ان يقتبسوا من كل شعب ما يروونه الاحسن
عنده ، فكان ذلك مشروع تجديد وهدم واعادة بناء ، وظهرت آثار ذلك
في جميع مناحي الحياة اليابانية . »

ثم تكلم على الحرب اليابانية الصينية ، وانتهى الى قوله الذي نترجمه
ترجمة حرفية :

« ان ظفر اليابان بالصين لم يشبت علو الافكار والمبادئ العلمية التي

أخذتها اليابان عن الغرب وكفى ، بل أثبتت أمراً آخر وهو ان شعباً آسيوياً بمجرد ارادته وعزيمته عرف ان يختار ما رآه الاصلح له من مدينة الغرب (تأمل جيداً) مع الاحتفاظ باستقلاله وقوميته وعقليته وآدابه وثقافته، اهـ.

وقبلاً كنت نشرت في الجرائد - وما نشرته لم يكن إلا نقطة من غدیر - خلاصة الحفلات التي اقامها اليابانيون لتتويج عاهلهم منذ سنتين وكيف استمرت مراسم هذا الاحتفال مدة شهر ، وكانت بأجمعها دينية ، وكيف ان الميكادو هو كاهن الامة الاعظم ، وكيف انه من سلالة الآلهة (الشمس) وكيف اغتسل في الحلم المقدس المحفوظ من ألفي سنة ، وكيف أكل مع الآلهة الارز المقدس الذي زرعه للدولة تحت اشراف الكهنة حتى يكون تام القدسية لا شبهة فيه ، وكيف كان ثمة في الحفل ستاية ألف ياباني وكلمهم يهتفون ليحيي الميكادو عشرة آلاف سنة الى غير ذلك .



لماذا لا نسمي اليابان وأوروبا رجعية بتدينيهما

فلماذا ، يا ليت شعري ، تتقدم اليابان هذا التقدم السريع المدهش وتصير هذه الأمة أمة عصرية يضرب برقيها المثل وهي تضرب بأعراقها الى عقائد وعادات ومنازع مضى عليها ألفا سنة ، ويكون امبراطورها هو كاهنها الاعظم ، ولا يقال عنها (رجعية) و (مرتجعة) و (ارتجاعية) ومتأخرة ومتقهرة (فان كانت اليابان رجعية فرحى بالرجعية) .

ولماذا كان ملك انكلترا وامبراطور الهند السيد على ٤٥٠ مليون آدمي في الارض من البيض والسمر والصفير والحمر والسود هو رئيس الكنيسة الانكليكانية ومجالسه النيابية تبحث في جلسات عديدة في قضية الخبز والحجر هل يستحيلان بمجرد تقديس القسيس الى جسد المسيح ودمه فعلا دون أدنى شك أم ذلك قبيل الرمز والتمثيل (١) ؟ ولا يقال عنه انه (رجعي) ولا يقال

(١) لم يحدث التاريخ عن مسألة من مسائل انكلترا الداخلية اخذت في الأهمية الدور الذي اخذته قضية «الأفخاريسما» وهي قضية تحول الخبز والحجر الى جسد المسيح . وأصل هذه العقيدة ما رواه الانجيل من ان السيد المسيح عليه السلام قبل صعوده الى السماء تعشى مع تلاميذه وودعهم ، وبينما هو على المائدة تناول لقمه من الخبز وقال: كلوا هذا هو جسدي . وشرب جرعة من الحجر وقال : اشربوا هو ذا دمي . فتكررت من هذه الكلمات في النصرانية عقيدة معناها =

عن ذولته العظمى أنها (متأخرة) أو (متقهقرة) فان كانت انكلترة بعد هذا متقهقرة فيما حبذا (التمهقر) .

ولماذا كانت القارة الاوروبية كلها مسيحية مفتخرة بمسيحيتها ، تباهاى

= ان الخبز والخمر يستحيلان الى جسد الرب تماماً وحقيقة لا مجازاً ، ولما كان القسيس عندما هو خليفة المسيح كان لا بد له كل يوم عند التقديس في الكنيسة أن يتناول لقمه من الخبز ويشرب رشفة من الخمر وهو يتلفظ بنفس الكلمات التي تفوه بها السيد المسيح عليه السلام في أثناء عشائه مع الحواريين. فمضى فعل ذلك تحول هذا الخبز وهذا الخمر الى جسد الرب حقيقة لا مجازاً، ولذلك يوضع هذا الخبز ويسمونه القربان في 'حق ثمين فوق المذبح من الكنيسة ويسجدون له وذلك باعتبار ان هذا القربان هو الإله نفسه، ويسمون وجود الإله فيه « بالحضور الحقيقي » وبالفرنسية *Présence réelle* وهذا من اعظم الأسرار المقدسة عظيم. وإذا اشرف المريض على الموت جاء القسيس وتلقى منه الاعتراف بذنوبه وتاوله هذا القربان فقيل أنه ذهب الى الآخرة متزوداً الأسرار الإلهية . وقد كانت هذه العقيدة هي عقيدة المسيحيين جميعاً ولا تزال عقيدة اكثرهم الى اليوم الا انه جرى الاصلاح البروتستانتي تغير الاعتقاد عند اتباعه بقضية الحضور الحقيقي وباستحالة الخبز والخمر اللذين يقدر عليهما القسيس الى جسد الرب ودمه حقيقة لا مجازاً . وقال البروتستانتيون ان هذا مجاز لا حقيقة وانه مجرد رمز وتذكار وعدلوا عن وضع القربان فوق المذبح والسجود له باعتبار انه هو الإله بذاته وصاروا في كنائس البروتستانت يحلمون هذا القربان في تجويف خاص به من الحائط ولكن الكنيسة الانكليكانية أي الكنيسة العليا في انكلترة لم يتفق رأيا في قضية القربان فعزب اليمين منها كان باقياً على عقيدته الاصلية وهي ان الخبز والخمر يستحيلان بتقديس الكاهن الى جسد الرب حقيقة لا مجازاً. وحزب الوسط مع حزب اليسار كانا يقولان ان كلمات السيد المسيح هذه لم تكن إلا رمزاً وأنه لا يمكن ان يتحول الخبز والخمر تحت تقديس الكاهن الى جسد الرب ودمه واعتمدوا في رفض العقيدة الكاثوليكية على (كتاب الصلاة) الذي هو دستور الكنيسة الانكليكانية وهو كتاب وضعه بروتستانتيو الانكليز لمذهبهم يوم انشقوا عن الكنيسة الرومانية .

ولما كانت هذه المسألة مسألة خلافية بين اتباع الكنيسة الانكليكانية وقد عمل فيها كل فريق برأيه وخيف فيها من انشقاق عام أمرت الحكومة البريطانية بتأليف مجمع من الأساقفة تحت =

بذلك في كل فرصة ، متحدة في هذا الأمر على ما بينها من عداوات
ومنافسات ، ولا ننبذها حتى بقولنا (رجمية) و (ارتجاعية) والحال ان
الديانة التي قدين بها اوروبة عمرها ١٩ قرناً .

وهذا عهد يصح أن يقال عنه قديم (وقديم جداً) وهؤلاء اليهود مها

= رئاسة إمامهم الأكبر رئيس أساقفة كنتريي لأجل التدقيق في هذه المشكلة وحلها على أحد
الوجهين . فانهقد المجمع وذلك منذ أربعين سنة ولم يوفق الى حل يرضي الفريقين وأخيراً ألحت
الحكومة على هؤلاء الأساقفة بأن يبتوا في القضية ان لم يكن بالاجماع فبأكثرية الآراء فحكروا
بالأكثرية وخالف في الحكم ستة من المطارين وذلك بأن الخبز والخر يستحيلان في قداس الكاهن
الى جسد المسيح ودمه وعليه تجب عبادتها والسجود لها ووضعها في أعلى المذبح لا في كوة حائط
الكنيسة . وبالاختصار رجع أكثر المطارين في هذه المسألة الى العقيدة البابوية ، ولما كان القانون
الأساسي لبريطانية العظمى يوجب أن يكون القول الفصل في جميع هذه القضايا الدينية لمجلس
اللوردات والمجلس العموم عملاً بكتاب الصلاة الذي هو مرجع الأمة الانكليزية أحيل حكم
المطارين هذا الى مجلس اللوردات ، وكانت للمناقشات فيه جلسات متعددة بلغت من اهتمام الملأ
ما لم تبلغه المناقشات في أية مسألة .

وقيل إن بعض اللوردات من بلغ بهم الكبر عتياً قد حملوا الى المجلس على الاكف حتى لا
يفوتهم سماع هذه المناقشات . وأخيراً أيد مجلس اللوردات بالأكثرية قرار مجمع الأساقفة ولم يكن
ذلك كافياً ، إذ كان لا بد لامضاء الحكم من قرار مجلس الأمة الذي يقال له مجلس العموم .

فلما جاءت القضية الى مجلس الأمة نزع بأكثرية أعضائه عرق العصية البروتستانتية وكان في
مقدمتهم ناظر الداخلية البريطانية فنقضوا قرار مجلس اللوردات وحكم مجمع الأساقفة وقرروا
ان الخبز والخر لا يستحيلان بالبداية الى جسد السيد المسيح عليه السلام ودمه وتوكلوا في ذلك
على « كتاب الصلاة » الذي هو دستور الكنيسة الانكليكانية الوحيد ولم يوافقوا مجمع الأساقفة
إلا على زيادة العبارات التي زادها في الدعاء للملك انكلترة . وعلى أثر هذا القرار من مجلس
العموم استمفى رئيس أساقفة كنتريي من منصبه .

وإنما أتينا على ذكر هذه الحادثة التي ليست موضوعنا مباشرة إثباتاً لأمرين أولهما استمساك =

نذكر عليهم من الفضائل فلا نقدر ان ننكر عليهم المقدره والذكاء والحس
العملي والجد الهائل - لا يزالون يفخرون بتوراة وجدت منذ آلاف السنين
ويشاركهم فيها المسيحيون .

ولماذا نرى اعظم شبان اليهود رقبياً عصرياً يجاهدون في إحياء اللغة العبرية
التي لا يعرف مبدأ تاريخها لتوغلها في القدم ، ولا يقال عنهم أنهم رجعيون
ومتأخرون وقهقريون ؟

وقد نشر وايزمان رئيس الجمعية الصهيونية حديثاً في جريدة (المانتز) كان
من أهم ما فخر به وأدلى به كفاءة ينبغي ان تذكرها لهم الانسانية هو (ان
فلسطين الحديثة تتكلم اليوم بأجمعها بلغة الأنبياء) يريد بفلسطين الحديثة
فلسطين اليهودية التي قد نشر الصهيوينيون فيها اللغة العبرانية القديمة وأجبروا
نشئهم الجديد على أن يتحدثوا بها لتكون اللغة الجامعة لليهود . ومن الذي

= الأمة الانكليزية بمبادئها الدنيوية وشدة اهتمامها بهذه المباحث مع انها في طليعة الأمم الراقية
بلا نزاع والثاني تشدق من يقول ان أوروية نبذت الدين ظهرياً ومن يقول ان أوروية فصلت
الدين عن السياسة وان هذا الفصل كان نجاحها وأنه حري بالمسلمين أن ينجحوا نهجها إن كانوا
يريدون لأنفسهم رقبياً كرقبي الأوروبيين وسلطاناً في الارض كسلطانهم . فإين فصل الدين عن
السياسة هنا ؟

وهذا « كتاب الصلاة » هو الذي اعتمد عليه مجلس العموم في نقض قرار مجلس اللوردات .
وأين فصل الدين عن السياسة وأنت ترى ان مسألة دينية بجثة تطرح في مجلس اللوردات ومجلس
النواب ويفصلان فيها فان لم تكن هذه المسألة دينية فما الديني إذا ؟ وإن لم يكن مجلسا الشيوخ
والنواب مختصين بالسياسة فما المجالس التي تختص بالسياسة بمدى ؟ فليتأمل القارئ النصف
مدى التضليل الذي يقوم به المضللون من المسلمين الجغرافيين إما جهلاً وتعامياً عن الحقيقة
وإما خدمة للاستعمار الأوروبي الذي ليس له غرض أعز عليه من ان يأتي على بنيان الاسلام من
القواعد (ش) .

فعل هذا؟ الجواب هم اليهود العصريون الذين هم أشد الناس أخذاً بمبادئ العلم الحديث والحضارة المصرية .

وَمَا يَذَكَرُ إِلَّا أُولَئِكَ الْآلِبَابِ (١) .

وماذا عساني أحصي من هذه الأمثال والعبر في رسالة وجيزة كهذه ؟

كل قوم يعتصمون بدينهم ومقومات ملتهم ومشخصات قومهم الموروثة ولا يفتنون بهذه الابواب إلا المسلمين !

فإنه إذا دعاهم داع الى الاستمساك بقرآنهم وعقيدتهم ومقوماتهم ومشخصاتهم وباللسان العربي وآدابه والحياة الشرقية ومناحيها قامة قيامة الذين في قلوبهم مرض ... وصاحوا : لتسقط الرجعية . وقالوا : كيف تريدون الرقي وأنتم متمسكون بأوضاع بالية باقية من القرون الوسطى ونحن في عصر جديد .

جميع هؤلاء الخلائق تعلموا وتقدموا وترقوا وعلوا وطاروا في السماء والمسيحي منهم باق على انجيله وتقاليد الكنيسية ، واليهودي باق على وثنه وأرزه المقدس ، وكل حزب منهم فرح بما لديه وهذا المسلم المسكين يستحيل ان يترقى إلا إذا رمى بقرآنه وعقيدته وماأخذه ومنازعه ومشاربه ولباسه وفراشه وطعامه وشرابه وأدبه وطربه وغير ذلك وانفصل من كل تاريخه ، فان لم يفعل ذلك فلا حظ له من الرقي ؟

فهذا ما كان من ضرر الجاحد الذي يقصد السوء بالاسلام وبالشرق أجمع ويخدع السذج بأقاويله .

(١) من الآية : ٢٦٩ من البقرة .

غوائل الجامدين في الاسلام والمسلمين

ويقي علمينا المسلم الجامد ، الذي ليس بأخف ضرراً من الجاحد ، وان كان لا يشر كه في الخبث وسوء النية ، وإنما يعمل ما يعمله عن جهل وتعصب .

فالجامد هو الذي مهد لأعداء المدنية الاسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية محتجين بأن التأخر الذي عليه العالم الاسلامي إنما هو ثمرة تعاليمه .

والجامد هو سبب الفقر الذي ابتلي به المسلمون لأنه جعل الاسلام دين آخرة فقط . والحال ان الاسلام هو دين دنيا وآخرة . وان هذه مزية له على سائر الأديان . فلا حصر كسب فيما يعود للحياة التي وراء هذه كما هي ديانات أهل الهند والصين ، ولا زهده في مال الدنيا وملكها ومجدها كتعاليم الانجيل ، ولا حصر سعيه في أمور هذه المعيشة الدنيوية كما هي المدنية اوروبة الحاضرة .

والجامد هو الذي شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها بحجة انها من علوم الكفار . فحرم الاسلام ثمرات هذه العلوم ، وأورث أبنائه الفقر الذي هم فيه وقص أجنحتهم ، فان العلوم الطبيعية هي العلوم الباحثة في الأرض . والأرض لا تخرج افلاذها إلا لمن

يبحث فيها (١) فان كنا طول العمر لا نتكلم إلا فيما هو عائد للآخرة قالت لنا الأرض : إذهبوا توأ الى الآخرة فليس لكم نصيب مني .

ثم إننا بـمحصـر كل مجهوداتنا في هذه العلوم الدينية والمحاضرات الأخروية جعلنا أنفسنا بـمركز ضعيف بإزاء سائر الأمم التي توجهت الى الأرض ، وهؤلاء لم يزالوا يعملون في الأرض ونحن ننحط في الأرض ، الى ان صار الأمر كله في يدهم ، وصاروا يقدرون ان يأفكونا عن نفس ديننا فضلا عن ان يملكونا علينا دنيانا ومن ليست له دنيا فليس له دين وليس هذا هو الذي يريد الله بنا وهو الذي قال :

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ الْآيَةَ (٢) .

وقال :

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (٣) .

وقال :

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

(١) كان جدي الأدي رحمه الله تعالى يقول : ان جار عليك الزمان فمليك ان تجور على الأرض . أي تلج وتجتهد في استخراج خيراتها (ر) .

(٢) النور : من الآية ٥٥ .

(٣) البقرة : من الآية ٢٩ .

الرِّزْقِ ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ^(١) .

وقال فيما حكاه وأقره :

وَلَا تَنْسَ نَصِيحَكَ مِنَ الدُّنْيَا ^(٢) .

وعلمنا ان ندعوه بقوله :

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ^(٣) الخ ...

والمسلم الجامد لا يدري انه بهذا المشرب يسعى في بوار ملته وحطها عن
درجة الأمم الأخرى ، ولا يتنبه لشيء من المصائب التي جرهما على قومهم
اهملهم للعلوم الكونية حتى أصبحوا بهذا الفقر الذي هم فيه ، وصاروا عيالاً
على أعدائهم الذين لا يرقبون فيه إلا ولا ذمة ، فهو إذا نظر الى هذه الحالة
علها بالقضاء والقدر بادية الرأي ، وهذا شأن جميع الكسالى في الدنيا
يحملون على الاقدار .

هذا الخلق هو الذي حبيب الكسل الى كثير من المسلمين فنجمت فيهم فئة
يلقبون « بالدراويش » ليس لهم شغل ولا عمل ، وليسوا في الواقع إلا اعضاء
مشلولة في جسم المجتمع الاسلامي .

(١) الاعراف : من الآية ٣٢ .

(٢) للقصص : من الآية ٧٧ .

(٣) البقرة : من الآية ٢٠١ .

وهذا الخلق بعينه هو الذي جعل الافرنج يقولون أن الاسلام جبري لا يأمر
بالعمل ، لأن ما هو كائن هو كائن ، عمل الخلق أم لم يعمل .

آيات العمل المبطلّة لتفسير القدر بالجبر والكسل :

ولا شيء أدل على فساد هذا الزعم الافرنجي من القرآن المألّف بالحث على
العمل وباستنهاض الهمم ، وابتعاث المزائم ، ونوط الثواب والعقاب والفوز
والفشل بالعمل الذي يعمله المكلف . قال الله تعالى :

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ^(١) .

وقال تعالى :

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ^(٢) .

وقال تعالى :

وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ^(٣) .

وقال تعالى :

لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ^(٤) .

(١) التوبة : من الآية ١٠٥ .

(٢) يونس : من الآية ٤١ .

(٣) التوبة : من الآية ٩٤ .

(٤) البقرة : من الآية ١٣٩ .

وقال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا
تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (١) .

وقال تعالى :

وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالَكُمْ (٢) . أي لا ينقصكم أعمالكم .

وقال تعالى :

وَأِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ
شَيْئاً (٣) .

لا يلتكم من لاته يلبته أو ولته يلبته بمعنى نقصه ، أي لا يبخصكم من
اعمالكم شيئاً ، وقال تعالى :

نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (٤) .

وقال عز وجل :

وَأِنْ كَلَّا لَمَا لِيَوفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ (٥) .

(١) محمد : من الآية ٣٣ .

(٢) محمد : من الآية ٣٥ .

(٣) الحجرات : من الآية ١٤ .

(٤) هود : من الآية ١٥ .

(٥) هود : من الآية ١١١ .

وقال عز وجل :

وَلْيُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ وَهُمْ لَا يظلمُونَ (١) .

وقال عز وجل :

أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم (٢) .

وقال عز وجل :

فَنِعْمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ (٣) .

وقال عز وجل :

مِثْلَ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٤) .

وقال عز وجل :

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (٥) .

وقال عز وجل :

وَتُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ (٦) .

(١) الاحقاف : من الآية ١٩ .

(٢) آل عمران : من الآية ١٩٥ .

(٣) الزمر : من الآية ٧٤ .

(٤) الصافات : من الآية ٦١ .

(٥) فاطر : من الآية ١٠ .

(٦) النحل : من الآية ١١١ .

وقال عز وجل :

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ
حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(١) .

وقال عز وجل :

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ^(٢) .

وقال عز وجل :

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ^(٣) .

وقال عز وجل :

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَّا عَمِلُوا ^(٤) .

وقال تبارك وتعالى :

وَوَجَدُوا مَّا عَمِلُوا حَاضِرًا ^(٥) .

(١) النحل : ٩٧ .

(٢) آل عمران : ٣٠ .

(٣) الزمر : ٧٠ .

(٤) النحل : من الآية ٣٤ .

(٥) الكهف : من الآية ٥٠ .

وقال تبارك وتعالى :

لِيُذَيِّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا (١)

وقال تعالى :

إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ

بِمَا عَمِلُوا (٢) .

وقال تعالى :

وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا

يُظَالَمُونَ (٣) .

وقال تعالى :

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٤) .

وقال تعالى :

سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٥) .

(١) الروم : من الآية ٤١ .

(٢) سبأ : من الآية ٣٧ .

(٣) الاحقاف : ١٩ .

(٤) الزلزال : الآيتان ٧ و ٨ .

(٥) الاعراف : من الآية ١٧٩ .

وقال تعالى :

جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١) .

وقال تعالى :

وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢) .

الى غير ذلك مما لا يكاد يحصى من الآيات التي امتلأ بها القرآن ومنها ما هو نص في مسألتنا هذه كقوله تعالى :

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (٣) .

وقوله تعالى :

أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا ؟
قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ (٤) .

إن صاحب السؤال يعلم وأكثر المسلمين لا يعلمون ان هذه الآية خاطب الله تعالى بها أكل هذه الأمة إيماناً وإسلاماً وهم أصحاب رسول الله ﷺ إذ قمعجبا من ظهور المشركين عليهم في غزوة أحد فرد الله عليهم ببيان السبب وهو مخالفتهم أمره ﷺ الرمسة الذين يحمون ظهور المقاتلة بالآلا يبرحوا أماكنهم سواء كان الغلب للمسلمين أو عليهم ، فلما انهزم المشركون خالفوا

(١) السجدة : من الآية ١٧ . والاحقاف : من الآية ١٤ والراقعة : من الآية ٢٤ .

(٢) العنكبوت : من الآية ٥٥ .

(٣) الشورى : من الآية ٣٠ .

(٤) آل عمران : من الآية ١٦٥ .

الأمر لمشاركة المقاتلين في الغنيمة ، ففكر عليهم المشركون حتى 'شج' رأس
النبي ﷺ الخ ...

وكلها ناطقة بأن الاسلام هو دين العمل لا دين الكسل ولا هو دين الاتكال
على القدر المجهول للبشر ، كما يقول الدراويش البطالون :

رزقنا على الله عملنا أم لم نعمل ، كما يزين للناس بعض مؤلفي الافرنج من
ان دين الاسلام دين جمود وتقويض وتسليم ، وان تأخر المسلمين إنما نشأ
عن ذلك ، ولو كان في هذه الدعوى ذرة ما من الصحة لما نهض الصحابة أخبر
الناس بالاسلام وفتحوا نصف كرة الأرض في خمسين سنة : ولكن التسليم
الذي يتكلمون عليه ويهرفون فيه بما لا يعرفون إنما هو مقرون بالعمل
وبالكدح وبالسعي وإلا فلا يسمى تسليمًا بل يسمى جموداً ، ويمد بطلالة وهو
مخالف للقرآن وللسنة .

وأما إذا كان التسليم لله مقرونًا بالعمل فإنه أنفع في الدنيا والآخرة لأن
افراط المرء في الاعتماد على نفسه يورطه في البطر إذا نجح ، وفي الجزع إذا
فشل . والذي يريده الاسلام إنما هو ان يعقل الانسان ويتوكل^(١) وان يدبر
لنفسه بهداية عقله الذي جعله الله مرشداً ، ويعلم مع ذلك ان ليس كل الأمر
بيده ، وان من الاقدار ما لا تدركه الأفكار . وهذا صحيح ، ولما ذكر
النبي ﷺ القدر سأله بعض أصحابه ألا نتكل ؟ فقال :

اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

(١) في قوله يعقل هنا تورية لاحتماله معنيين : ظاهرهما تحكيم ادراك العقل في الامور مع
التوكل على الله ، والثاني عقل الناقاة المراد به الأخذ بالاسباب مع التوكل على الله ، اذ فيه
اشارة الى حديث الاعرابي المشهور بين الناس حتى صار مثلاً « اعقلها وتوكل » وفي رواية
« قيدها وتوكل » يعني ناقته فلم يأذن له (ص) ان يتركها توكلها على الله تعالى (ر) .

رواه البخاري ومسلم .

ومن أغرب الغرائب ان هؤلاء الافرنج الذين لا يفتأون بنعمتون الاسلام بالجبرية وينسبون تأخر المسلمين الى هذه العقيدة - التي كان يقول بها فئة قليلة من المسلمين - يذهلون عما هو وارد في الانجيل من آيات القضاء والقدر التي تماثل ما في القرآن وقد تزيد عليه مثل قوله: لا تسقط شعرة من رؤسكم إلا بإذن ابيكم السهوي. ومثل آي كثيرة لو أردت استقصاءها لطال المقال.

ولا نجد في الافرنج الذين هم مفرمون بالعمل وهائمون وراء الكسب ومنكرون للقضاء والقدر في الجملة ، إلا من يقرأ الانجيل الشريف ويقدهس ويمجج ببادئه السامية كما نعجب بها نحن . فما بالهم نسوا ما فيه من آيات القضاء والقدر ؟ وما بالهم لم يصفوا أقوال المسيح صلوات الله عليه بالجبرية ؟

يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً (١) .

وحقيقة الأمر ان كل ما هو وارد في الانجيل وكل ما هو وارد في القرآن من آيات القضاء والقدر إنما كان مقصوداً به سبق علم الله بكل ما يقع (٢) ولم يكن مقصوداً به نفي الاختيار والتزهد في الكسب .

(١) التوبة : من الآية ٣٨ .

(٢) هذا التفسير قول لبعض المتكلمين وهو ان تعلق علم الله بوجود المخلوقات في الأزل هو القضاء ووجودها على وفق العلم هو القدر ، وقال بعضهم انه تعلق الارادة الخ . والتحقيق ان القدر والمقدار هو النظام الذي جرت به سنن الله تعالى في التكوين والتدبير والاسباب والمسببات كما يفهم من نصوص الآيات كقوله تعالى: (وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) . وقوله : (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) الآية - وقوله في نظام جعل النطفة في الرحم : (الى قدر معلوم) وقوله : (ثم جئت على قدر يا موسى) وقد حققنا المسألة في النار والتفسير مراراً (ر) .

وفي حديث الوزنتين والوزنات وغير ذلك من مواعظ الانجيل الشريف
ما يدل على ما عزاه القرآن الكريم الى صحف ابراهيم وموسى اي وغيرها من
رسل الله .

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا
سَعَى * وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ
الْأَوْفَى (١) .



(١) النجم : الايات : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

كون المسلمين الجاهدين فتنة لأعداء الإسلام وحجة عليه

ونعود الى المسلم الجديد فنقول : انه هو الذي طرقت لاعداء الاسلام على الاسلام ، وأوجد لهم السبيل الى القالة بحقه ، حتى قالوا انه دين لا يتألف مع الرقي المصري ، وانه دين حائل دون المدنية .

والحقيقة ان هؤلاء الجاهدين هم الذين لا تأتلف عقائدهم مع المدنية ، وهم الذين يحاولون دون الرقي المصري والاسلام براء من جماداتهم هذه .

إن الاسلام هو من أصله ثورة على القديم الفاسد ، ووجب للماضي القبيح ، وقطع كل العلائق مع غير الحقائق ، فكيف يكون الاسلام ملة الجمود ؟ والقرآن هو الذي جاء فيه من قصة ابراهيم عليه السلام :

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ^(١) .

(١) الانبياء : الايات من ٥٢ الى ٥٤ .

وجاء فيه :

قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ .

قَالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ

أَوْ يَضُرُّونَ ؟

قَالُوا : بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ .

قَالَ : أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ

الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ^(١) .

وجاء فيه :

إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ .

قَالَ : أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ^(٢) .

وجاء فيه :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا

(١) الشعراء : الايات من ٧١ الى ٧٧ .

(٢) الزخرف : من الايتين ٢٣ و ٢٤ .

أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً
وَلَا يَهْتَدُونَ (١) .

وجاء فيه :

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا
عَلَيْهَا ؟ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ (٢) .

وغير ذلك من الآيات الداعية الى الثورة على القديم إذا لم يكن صحيحاً
ولم يكن صالحاً .

على أن الذين يفهمون الاسلام حق الفهم يرحبون بكل جديد لا يعارض
المقيدة ، ولا تخشى منه مقسدة . ولا أظن شيئاً يفيد المجتمع الاسلامي
يكون مخالفاً للدين المبني على إسماعاد العباد . أفلا ترى علماء نجد وهم أبعد
المسلمين عن الافرنج والتفرنج ، وأنسأهم عن مراكز الاختراعات العصرية ،
كيف كان جوابهم عندما استفتاهم الملك عبد العزيز بن سعود أيده الله في
قضية اللاسلكي والتلفون والسيارة الكهربائية ؟ أجابوه انها محدثات نافعة
مفيدة ، وانه ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله لا بالمنطوق ولا
بالمفهوم ما يمنعها .

(١) البقرة : ١٧٠ .

(٢) البقرة : ١٤٢ .

أفليس الأدنى لمصلحة الأمة ان تقدر الدولة على معرفة أي حادث يحدث بمجرد وقوعه حتى تتلافى أمره ؟ أفليس الأنفع للمسلمين ان يتمكن الحاج ببضع ساعات من اجتياز المسافات التي كانت تأخذ أياماً وإياي ، لقد سألت الشيخ محمد بن علي بن تركي من العلماء النجديين الذين بمكة عن رأيه في التلفون واللاسلكي فقال لي :

هذه مسألة مفروغ منها ، وأمر جوازها شرعاً هو من الوضوح بحيث لا يستحق الأخذ والرد .

ولم تكن مقاومة الجديد خاصة بجامدي الاسلام ، فقد قاومت الكنيسة في النصرانية كل جديد تقريباً من قول أو عمل ، ثم عادت فيما بعد فأجازته . ولما قال « غاليلد » بدوران الأرض كفرته ، ولا يزال يوجد الى اليوم من أحمبار النصرارى من يكفر كل مخالف لما جاء في التوراة من كيفية التكوين ، ومن سنتين حوكم أحد المعلمين في محاكم إحدى الولايات المتحدة لقوله بنظرية داروين ومنع من التدريس ، ولكن هذا لا يمنع سير العلم في طريقه (١) .

فالنصارى عندهم جامدون كما عندنا جامدون ، والمسلم الجامد يحارب كل علم غير العلم الديني التقليدي الذي ألفه ، حتى انه ليحارب من لا يعتمد في دينه إلا بالكتاب والسنة ، وينسى ان العلوم الطبيعية والرياضية والهندسة وجر الأثقال والفلك والطب والكيمياء وطبقات الأرض وكل علم يفيد الاجتماع البشري هي علوم دينية ان لم تكن مباشرة فمن حيث

(١) وقد تألف في انكلترة وأمريكا حزب ديني جديد أو جمعية للدعوة الى الايمان بظواهر التوراة في الخلق والتكوين وكل شيء من غير تأريخ (راجع ص ٢٢٣ م ٣٠ النار . (ر) .

النتيجة^(١) وكم جرى تدريس هذه العلوم في الأزهر الأموي والزيتونة والقرويين وقرطبة وبغداد وسمرقند وغيرها عندما كان للإسلام دول كبار وأعظم رجال ، وكم نبغ في الإسلام من عطاء جمعوا بين الحكمة والشريعة ، ونظموا بين الحديث والرياضة ، وإن اكبر فيلسوف عربي اشتهر اسمه في اوروبة هو القاضي ابن رشد وقد كان من أكابر الفقهاء .



(١) أي من باب قول العلماء : ما لم يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب . وقد بينا في تفسير (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أن آلات القتال البرية والبحرية والجوية واجبة بنص هذه الآية لأنها من القوة المستطاعة للمسلمين كما هي مستطاعة لغيرهم ، فليس وجوبها بقاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب بل بنص القرآن ودلالة المنطوق منه فراجع تفسيرها في ص ٦١ ج ١٠ من تفسير المنار (ر) .

مدنية الاسلام

أما زعم من زعم ان الاسلام لم يتمكن من تأسيس مدنية خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة ، فهو خرافة يموه بها بعض أعداء الاسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل ، اما القسم الأول فلأجل ان يزرعوا ان يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوروبية ، وأما القسم الثاني فلأجل أن يزرعوا في العالم الاسلامي بذور الاحاد، ونحن لا ننكر تأثير الدين في المدنية ولكننا لا نسلم بأنه يصح ان يكون لها ميزاناً ، وذلك لأنه كثيراً ما يضعف تأثير الدين في الأمم فتفتلت من قيوده وتفسد اخلاقها وتنهار أوضاعها ، فيكون فساد الأخلاق هو علة السقوط ، ولا يكون الدين هو المسؤول ، وكثيراً ما تطرأ عوامل خارجية غير منتظرة فتتغلب على ما أثلته الشرائع من حضارة ، وتزلزل أركانها ، وقد تهدمها من بوانبها ، ولا يكون القصور من الشريعة نفسها ، فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة؛ بل من الجهل بالشرعية ، أو كان من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي . ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الاسلام عظيماً عزيزاً .

وأي عظمة أعظم مما كان الإسلام في أيام عمر بن الخطاب مثلاً .

ومدنية الإسلام قضية لا تقبل المماحكة إذ ليس من أمة في أوروبا سواء الالمان أو الفرنسيين أو الانكليز أو الطليان الخ. إلا وعندهم تأليف لا تحصى

في (مدينة الإسلام) فلو لم تكن للإسلام مدينة حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه ، مبنية على كتابه وسنته ، ما كان علماء أوروبا حتى الذين عرفوا منهم بالتعامل على الإسلام يكثر من ذكر المدينة الإسلامية ، ومن سرد تواريخها^(١) ، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدن ، ومن تبين الخصائص التي انفردت بها .

فالمدينة الإسلامية هي من المدن الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام ، والتي تغص سجلاته الخالدة بآثارها الباهرة .

وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشد والمأمون من احتفال العمارة ، واستبحار الحضارة وتناسل الثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها إلى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان ، وكانت البصرة في الدرجة الثانية عنها ، وكان أهلها نحو نصف مليون .

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند واصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الإسلام أمثلة طامعة وأقيسة بعيدة في استبحار العمران ، وتناول البنين ، ورفاهة السكان ، وانتشار العلم والعرفان ، وتأثر الفنون المتهدلة الأفتان .

وكانت القيروان وقاس وتلمسان ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول ، أو يناظرها مناظر ، أو أن يكثرها مكاث في ممالك أوروبا حتى هذه القرون الأخيرة .

(١) وقد ألفت عصبة من الأوربيين المستشرقين معلمة اسمها « إنسيكلوبيديا الإسلام » وتحامل فيها بعضهم على الإسلام وبخسوه من أشياءه ولكنهم لم يقدرُوا أن يحدوا أفرادهم بمدينة خاصة به .

- وكانت قرطبة مدينة فذة في أوروبا لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف مليون نسمة ، وكان فيها نحو سبعمائة جامع ، عدا المسجد الاعظم الذي لما زرته في هذا الاصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الاسبانيولية : إنه يسع بحسب مساحته خمسين الف مصلّ في الداخل و ٣٠ الف مصلّ في الصحن ، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون الفاً من المصلين .

ولما ذهبنا الى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلمنا أنها تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً في ثمانمائة متر عرضاً ، والاسبانيون يقولون : مدينة الزهراء .

وقال لي المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها ، انهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة .

وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة كانت مملكة صغيرة في آخر أمر المسلمين بالاندلس لم يكن في أوروبا في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها ، وكان فيها عندما سقطت في أيدي الاسبانيول نصف مليون نسمة ، ولم تكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوروبا تحتوي نصف هذا العدد ، وحمراء غرناطة لا تزال يتيمة الدهر الى اليوم .

هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الإسلام وغرر أيامه ، وإلا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقاً فوق طبق .

وكم حرر المؤرخون الأوروبيون تحت عنوان (مدنية الإسلام) كتباً قيمة وبجاميع صور تأخذ بالأبصار ، وان أشد مؤرخي الافرنج تحاملاً على الإسلام لا يتعدى ان يحاول التصغير من شأن مدنيته ، وأن ينكر كونه أبا

عذرتها ، فقصارى هذه الفئة أن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً
وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن يقولوا :

ان المسلمين لم يزيدوا على ان نقلوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق
والمغرب .

وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها ،
وحقائق كشفوها وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما
نشروه ونقلوه ، ومن استرق شيئاً وقد استرقه ، فقد استحقه .

وبعد فلم نعلم مدنية واحدة من مدنات الأرض إلا وهي رشح مدنات
سابقة وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ومجموع نتائج عقول مختلفة
الاصول ، ومحصول ثمرات أبواب متباينة الاجناس .



الرد على حساد المدنية الاسلامية المكابرين

أيها حساد الإسلام والمكابرون في عظمة فضله ، الزاعمون انه نقل وتعلم وفقد واقتدى ، وأنه إنما صلى وراء غيره - أن الغرب كان غلب على الشرق وان المدنية الشرقية يوم ظهر الإسلام كان أخنى عليها الذي أخنى على اليد ، وانه هو الذي جدها وأحيا آثارها ، وأقال عثارها ؟ وانها بعد ان كانت قد ااحت ولحقت بالغايرين ، أبرزها من أصدافها ، وجلاها من بعد ان كانت ملفوفة بغلافها ، ونشرها الى الخافقين ، وبلجها كفلق الصبح لكل سي عينين ، وأضفى عليها لباس الإسلام الخاص ، وديجها بديباجة القرآن ، التي لم تفارقها في شرق ولا غرب ، ولا سهل ولا غر ، حتى حل ذلك كثيراً من علماء الافرنج ممن لم يعمه الهوى ، ولم يجد في التحقيق عن مهيع الهدى ، على ان اعترفوا بأن مدنية الإسلام لم تكن نسخاً ولا نقلاً، وإنما هي قد نبعت من القرآن ، وتفجرت من عقيدة التوحيد .

فأما ما ترجمته حضارة الإسلام من كتب ، وما أخذته عن غيرها من علوم ، وما أفادته في فتوحاتها من منازع جميلة ، وطرائق سديدة ، أخذتها عن غيرها فلا يقدر ذلك في بكارتها الإسلامية ، ومسحتها العربية ، لان هذا

شأن الحضارات البشرية بأجمعها ان يأخذ بعضها عن بعض ويكمل بعضها بعضاً ، فالعلم الحقيقي ينحصر في هذا الحديث الشريف « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها ولو في الصين » (١) وهذه من اقدس قواعد الاسلام .

وعلى كل حال لا يقدر مكابر أن يكابر ان الإسلام كان له دور عظيم في الدنيا سواء في الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية ، وان هذه الفتوحات قد اتسقت له في دور لا يزيد على ثمانين سنة ، مما أجمع الناس على انه لم يتسقى لأمة قبله أصلاً .

وكان نابليون الأول لشدة دهشته من تاريخ الاسلام يقول في جزيرة سنهلالنة : ان العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لا غير .

وتأمل أيها القارئ في ان قائل هذا القول هو بونايرت الذي لم تكن تملأ عينيه الفتوحات مها كانت عظيمة .

وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا

وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعِظَائِمُ

فهذا رجل عظيم جداً استعظم حادث العرب الذي لم يسبق نظيره في التاريخ ، وقد بقي دور العرب هو الاول في وقته ، ولبثوا وهم المسيطرون في الارض ، لا يضارعهم مضارع ، ولا يفالهم مغالب ، مدة ثلاثة قرون أو أربعة . ثم اخذوا بالانحطاط ، وجعلت ظلالهم تتقلص عن البلدان

(١) هذا مضمون حديثين احدهما « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » رواه الترمذي من حديث أبي هريرة ، ورواه غيره بمعناه مع اختلاف في اللفظ . والثاني « اطلبوا العلم ولو بالصين » وذكره الكاتب في موضع آخر وهناك نذكر من اخرجه (راجع ص ٩٥) (ر).

التي كانوا غلبوا عليها شيئاً فشيئاً ، وذلك بفتور الهمم ، ورتيب الفساد الى الاخلاق ، ونبتذ عزائم الدين ، واتساع شهوات الأنفس وأشد ما ابتلوا به التنافس على الامارات والرتاسات ، - ولا سيما بين القديسية واليانية - مما لولاه لداذت لهم القارة الاوروية بأجمعها ، وكانت الآن عربية كما هو المغرب .

فالمصائب التي حلت بالمسلمين إنما هي مما صنعتهم أيديهم ، ومما حادوا به عن النهج السوي الذي اوضحه لهم القرآن الذي لما كانوا عاملين بحكم آيه علوا وظهروا وكانت لهم الدول والطوائل ، فلما ضعف عملهم به وصاروا يقرؤونه بدون عمل ، وانقادوا الى اهواء أنفسهم من دونه ، ذهب ربحهم ، وولى السلطان الاكبر الذي كان لهم ، وانتقصت الاعداء اطراف بلادهم ، ثم قصدوا الى اوساطها وما زال الاعداء يفتحون من بلدان الإسلام حتى أصبح ثلاثمائة مليون مسلم تحت ولاية الاجانب ولم يبق في العالم سوى ٧٠ او ٨٠ مليون مسلم نقدر ان نقول انهم تحت ولاية أنفسهم .

ولنضرب الآن بعض أمثلة عن الأمم الاخرى لأجل المقابلة بيننا وبينهم إذ كانت « بضدها تبتين الاشياء » .

اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها :

كان اليونانيون قبل النصرانية أرقى أمم الارض أو من أرقى أمم الارض ، وكانوا واضعي أسس الفلسفة ، وحاملي ألوية الآداب والمعارف ، ونبغ منهم من لا يزالون مصابيح البشرية في العلم والفلسفة إلى يوم الناس هذا .

وكان الاسكندر المقدوني أعظم فاتح عرفه التاريخ او من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ ، حاملاً للأدب اليوناني ، ناشراً لثقافة اليونان بين الأمم التي غلب عليها . وما كانت دولة البطالسة التي لمعت في الاسكندرية معلوماً

وفلسفتها إلا من بقايا فتوح الاسكندر . ثم لم تزل هذه الحالة الى ان تنصرت اليونان بعد ظهور الدين المسيحي بقليل ، فذذانت هذه الامة بالدين الجديد بدأت بالتردي والانحطاط وفقد مزاياها القديمة ، ولم تزل تنحط قرناً عن قرن ، وتتدهور بطناً عن بطن ، الى أن صارت بلاد اليونان ولاية من جملة ولايات السلطنة العثمانية . ولم تعد الى شيء من النهوض والرقى إلا في القرن الماضي ، واين هي مع ذلك الآن مما كانت قبل النصرانية ؟

أفيجب ان نقول ان النصرانية كانت المسؤولة عن انحطاط اليونان هذا ؟ ان القائلين بأن الاسلام قد كان سبب انحطاط الأمم الدائنة به لا مفر لهم من القول بأن النصرانية قد أدت ايضاً الى انحطاط اليونان التي كانت من قبلها عنوان الرقى .

ثم كانت رومية في عصرها الدولة العظمى التي لا يذكر معها دولة ، ولا يؤبه في جانب صولتها لصولة ، ولم تزل هكذا هي المسيطرة على الممور الى أن تنصرت لعهد قسطنطين ، فمذ ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنى ، الى ان انقرضت أولاً من الغرب ، وثانياً من الشرق ، ولم تسترجع رومية بعد انقراض الدولة الرومانية شيئاً من مكانتها الاولى وبقيت على ذلك مدة ١٥ قرناً حتى استأنفت شيئاً من مجدها الغابر .

وما هي الى هذه الساعة ببالغة ذلك الشأو الذي بلغته أيام الوثنية .

أفنجمل تنصر الرومان هو العامل في انحطاط رومة وتدحرجها عن قمة تلك العظمة الشاهقة ؟ لقد قال بهذا علماء كثيرون كما قال آخرون مثل هذه المقالة في الاسلام ، وكلا الفريقين جائر حائد عن الصواب .

فان لسقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحي فيهم ولسقوط اليونان من قبلهم بعد ان تقبلوا دعوة بولس الى النصرانية اسباباً وعوامل كثيرة من فساد الاخلاق ، وانحطاط الهمم ، وانتشار الخنى والحلاعة ، وشيوع الاحاد

والإباحة ، ومن هرم الدول الذي يتكلم عنه ابن خلدون ، وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة إليها غارات البرابرة من الخارج ، فكانت ثمة أسباب قاسرة مؤدية الى السقوط الذي كان لا بد منه ، فلو فرضنا ان النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث ولا تخطتهم نتائج تلك الاسباب .

فدعوى بعض المؤرخين الاوروبيين ان تغلب المسيحية على اليونان والرومان أحنى على عظمتها ، وذهب بمدنيتهما ليس فيه من الصحيح إلا كون الاوضاع الجديدة تذهب بالاوضاع القديمة ، سنة الله في خلقه وأنه في هيعة هذا التحول لا بد من اضطراب الاحوال وتحلل القواعد واستحكام الفوضى ، وإلا فلا أحد يقدر أن يقول : ان الوثنية أصلح للعمران من النصرانية (١) .

وهذه الدعوى كادت تكون أشبه بدعوى اعداء الاسلام الذين يزعمون

(١) علماء المسلمين يعتقدون ان النصرانية على ما طرأ عليها من الوثنية بالثلاث الوثني القديم أصلح لأنفس البشر من الوثنية الخالصة ولكنها ليست أصلح ولا أقبل للعمران المدني الذي تتنافس فيه اوروبة وغيرها لانها ديانة مبنية على المبالغة في الزهد والخضوع لكل حكم دنيوي ، والعمران لا يتم ولا يسمو الا بالسيادة والملك والغنى . ومن قواعد الانجيل ان الجمل إذا دخل في ثقب الإبرة فالغني لا يدخل ملكوت السموات . ونعتقد أيضاً ان جميع ما جاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حق وكان البشر في اشد الحاجة الى ما فيه من المبالغة في الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والكبرياء والعتو وان هذا كان تمهيداً للإسلام الدين الوسط المعتدل الجامع بين مصالح الدنيا والآخرة فما ذكرناه من اعتقادنا يتضمن اعترافنا بحقية دين المسيح في نفسه وبكونه من عند الله تعالى مع التعارض بينه وبين ديننا الناسخ له .

ومن وظيفتي ان أبين هذا في حاشية مقال كتب للعمار باقتراح من احد تلاميذ المنار على أمير البيان (ر) .

ان الشرق كان راتعاً في مجابح العمران ، فجاء الاسلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة ! لولا ان الحقيقة هي كما قدمنا ان المدنيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت أو انحطت قبل ظهور الإسلام بكثير ، وان الإسلام وحده لا غيره هو الذي جدد مدينة الشرق الدارسة ، واستأنف صولته الذاهبة الطامسة ، وبعث تلك الحواضر العظمى الزاخرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند وبخارى ودمشق والقاهرة والقبروان وقرطبة وهلم جرأ ، فان كانت قد بقيت للشرق آثار مدنيات قديمة فان الإسلام هو الذي وطد بوانبيها ، وطرز حواشياها ، وحمل السيف بيد والقلم بيد الى أبعد ما تصوره العقل من حدود الاقطار التي لم يسبق لشرقي ان يطأها بقدمه .

فاذا كان الافرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول أولئك الجراد المنتشر من الشرق ، قد دمروا ما بنى الإسلام في تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر ، وكانت منافسات ملوك الإسلام الداخلية للشهوات ، وامعائهم في الضلالات ، ومخيدهم عن جادة القرآن القويمة ، وفقدهم ما يزرعه في الصدور من الاخلاق العظيمة ، وقد قضت في الداخل ، على ما عجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذي في هذا التقلص ذنب الإسلام ، ولا التبعة في هذا الانقلاب عائدة على القرآن ، وإنما الذنب هو ذنب الهمج من الافرنج ، وجناية ذلك الجراد الزحاف من المغول ، وإنما هي تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمناً قليلاً ، إلا النادر منهم .

وايضاً فقد تنصرت الأمم الأوروبية في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح ، وبقيت أمم في شرقي أوروبا الى القرن العاشر حتى تنصرت ولم تنهض أوروبا نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجاً من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن إلا من نحو اربعمائة سنة أي من بعد ان دانت بالانجيل بألف سنة ، ومنها بعد ان دانت به بسبعماية سنة ومنها بثلاثمائة سنة ، الخ ..

وهذه هي القرون المسماة في التاريخ بالقرون الوسطى ولا نقول ان
الاوروبيين كانوا في هذه القرون بأجمعهم هائمين في ظلمات بعضها فوق بعض ،
بل نقول ان العرب كانوا أعلى كعباً منهم بكثير في المدينة باقرار مؤرخهم ،
وبرغم أنف لويس برتران واضرابه .

ومن الكتب المخرجة حديثاً الشاهدة بذلك التاريخ العام للكاتب الفيلسوف
الانكليزي « ولز » و « تاريخ مدنيات الشرق » مؤلف افرنسي متخصص
في التواريخ الشرقية اسمه « غروسه » فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي
واحدة في هذا الموضوع لم يظهر ما ينقضها ولن يظهر ، وهي : ان العرب
في القرون الوسطى كانوا اساتيد الاوروبيين ، وكان الواحد من هؤلاء إذا
تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه .

سبب تأخر أوروبا الماضي ونهضتها الحاضرة :

أفنجمل هذا التأخر الذي كان عليه الأوروبيون في القرون الوسطى مدة
الف سنة ناشئاً عن النصرانية التي كانت دينهم الذي يعضون عليه
بالتواجد ؟

نعم ان الأمم البروتستانتية منهم تجعل مصدر هذا التأخر الكنيسة البابوية
لا النصرانية من حيث هي . وتزعم ان نهضة أوروبا لم تبدأ إلا بخروج
(لوثير ، وكلفين) على الكنيسة الرومانية .

وأما فولتير ومن في حزبه من أقطاب الملاحاة فلا يفرقون كثيراً بين
الكاثوليك والبروتستانت ، وعندهم ان جميع هذه العقائد واحدة وانها عائقة
عن العلم والرفق ، ولهذا قال فولتير تلك الكلمة عندما ذكر لديه لوثير ،
وكلفين ، قال :

« كلاهما لا يصلح ان يكون حذاء لمحمد (١) » يرى ان محمد ﷺ بلغ من الاصلاح ما لم يبلغا ادناه ، مع اعتقاد الكثير ان مذهبها كان فجر أنوار أوروبا (٢) .

وألقى الذي لا يرتاب فيه أن النصرانية نفسها لم تكن هي المسؤولة عن جهالة الافرنج المسيحيين مدة الف سنة في القرون الوسطى بل للمسيحية الفضل في تهذيب برايرة أوروبا .

وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون ، ومنهم من هم على مذهب بوذا ، ومنهم من يقال لهم طاويون ، وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصيني كنفوشيوس . ولقد مضى عليهم نحو الف سنة ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة ولا هذه القوة والمكانة بين الأمم . ثم نهض اليابان من نحو ستين سنة وترقوا وعزوا وغلظ أمرهم ، وعلا قدرهم وصاروا الى ما صاروا اليه ولم يبرحوا وثنيين .

فلا كانت الوثنية إذا سبب تأخرهم الماضي ولا هي سبب تقدمهم الحاضر ، وقد تقاوت اليابان والروسيا وتحاربتا فتغلبت اليابان على روسيا مع ان

(١) ذكر فولتير هذه الجملة أمام البرنس سيندورف النموي الذي صار فيما بعد رئيساً لوزراء سلطنة النمسة وعندما دخل بوفارت فيينا كان هذا البرنس هو رئيس الحكومة فيها وكان نقله هذه الجملة عن فولتير في أيام شبابه عندما اجتمع به في سويسرة فقيدها في مذكراته المحفوظة في خزانة كتب فيينا وعنها نقلتها جريدة اللطان ونحن نقلناها عنها (ش) .

(٢) ونحن نمتقد هذا وكان شيخنا الاستاذ الامام اذكياء مردييه كسعد باشا زغالول يمتقدونه ولكن بمعنى سلي وهو ان هذا المذهب اضعف حجر الكنيسة على العقول البشرية وتقييدها بتعاليمها وفهمها للدين ورأها في الدنيا ، وكان سبب هذا المذهب ما سرى الى اوروبه عقب الحروب الصليبية بمعاشره المسلمين من استقلال العقل في فهم الدين وعدم سيطرة أحد عليهم فيه كما بينه شيخنا في كتاب الاسلام والنصرانية (ر) .

اليابانيين في العدد هم نصف الروس ، ولكن مما لا شك فيه ان اليابانيين أرقى من الروس ، والحال ان روسية عريقة في النصرانية واليابان عريقة في الوثنية .

فليترك إذاً بعض الناس جعل الأديان هي المعيار للتأخر والتقدم (١) .

أفنتقول من اجل هذا المثال : إن الانجيل هو الذي أحرر روسيا عن درجة اليابان ، وان عبادة الآلهة ابنة الشمس هي التي جذبت بضبع اليابان حتى سبقت روسيا ؟

إن لهذه الحوادث اسباباً وعوامل متراكمة ترجع الى أصول شتى ، فاذا تراكمت هذه العوامل في خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد واصبحت فضائل اقوم الأديان عاجزة بازاء شرها ، كما اصبحت معائب أسخفها غير مؤثرة في جانب خيرها .

ولسنا هنا في صدد أسباب تقدم اليابان السريع حتى نبين ان اعتقاد عامتهم (وجود حصان مقدس يركبه الإله فلان) لم يقف حائلاً دون تقدمهم المبني على ما ركب في فطرتهم من الحماسة ، وما أوتوا من الذكاء ، وما أورثهم نظام الاقطاع القديم من التنافس في المجد والقوة .

وعندنا أمثلة كثيرة تكاد لا تحصى في هذا الباب اجتزأنا منها بما ذكرناه . ولم نكن لنتعرض لهذا المقام لولا حملات القسوس والمبشرين وكثير من الأوروبيين على الاسلام ، وزعمهم انه عنوان التأخر ، وانه رمز الجمود ،

(١) هذا صحيح في جملة الأديان إلا الاسلام فقرأته وتاريخه يشبتان انه هو سبب تقدم أهله حين اهتموا به وسبب تأخرهم حين اعرضوا عنه ، كما بين هذا أمير الكتاب في رسالته هذه فأظلم الظلم ان يجعل سبب تأخيرهم (ر) .

وتحدثهم بذلك في الأندية والجامع ونشرهم هذه الافتراءات في المجلات والجرائد ، وقولهم ان الشجرة تعرف من ثمارها وان حالة العالم الإسلامي الحاضرة هي نتيجة جمود الإسلام ، وتحجر القرآن .

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (١) .

وحسبك ان المسيو سان (المقيم الافرنسي السامي) في المغرب ينشر في العدد الأخير من (مجلة الأحياء) الافرنسية مقالة يتكلم فيها على بقظة المغرب بعد (ليل الإسلام) ! هكذا تعبيره .

فان كان تأخر إحدى الممالك الإسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه (ليل الإسلام) فكم كان ليل النصرانية طويلاً عندما بقيت أوروبا المسيحية زهاء الف سنة وهي في حالة الهمجية او ما يقرب من الهمجية .

إن إدخال الأديان في هذا المعترك وجعلها هي وحدها معيار الترقى والتردي ليس من النصفة في شيء . اما الاسلام فلا جدال في كونه هو سبب نهضة العرب وفتوحاتهم المدهشة مما اجمع على الاعتراف به المؤرخون شرقاً وغرباً ولكنه لم يكن سبب انحطاطهم فيما بعد كما يزعم المفترون الذين لا غرض لهم سوى نشر الثقافة الاوروبية بين المسلمين دون ثقافة الإسلام وبسط سيادة أوروبا على بلدانهم بل كان السبب في تردي المسلمين هو انهم اكتفوا في آخر الأمر من الإسلام بمجرد الاسم والحال ان الإسلام اسم وفعل .

(١) الكهف : من الآية ٥٠ .

حث القرآن على العلم

(باعت للمسلمين على سبق الأمم في الرقي)

العالم الإسلامي يمكنه النهوض والرقي والحقاق بالأمم العزيزة الغالبة إذا أراد ذلك المسلمون ووطنوا أنفسهم عليه ، ولا يزيدهم الإسلام إلا بصيرة فيه وعزماً ، ولن يجدوا لأنفسهم حافزاً على العلم والفن خيراً من القرآن الذي فيه :

• هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ^(١)

والذي فيه :

• وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ ^(٢)

(١) الزمر : ٩ .

(٢) البقرة : من الآية ٢٤٧ .

والذي فيه :

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ (١) .

والذي فيه :

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ
قَائِمًا بِالْقِسْطِ (٢) .

والذي فيه :

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ (٣) .

والذي فيه :

يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
دَرَجَاتٍ (٤) .

(١) آبل عمران : من الآية ٧ .

(٢) آل عمران : من الآية ١٨ .

(٣) العنكبوت : من الآية ٤٩ .

(٤) المجادلة : من الآية ١١ .

والذي فيه :

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (١) .

وفيه :

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا (٢) .

وفيه :

فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٣) .

وغير ذلك من الآيات الكريمة ، وفيه ما هو خاص بالأمة العربية .

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤) .

(١) البقرة : من الآية ١٢٩ ، وآل عمران : من الآية ١٦٤ ، والجمعة : من الآية ٢ .

(٢) البقرة ٢٦٩ .

(٣) النساء : من الآية ٥٣ ،

(٤) الجمعة : ٢ .

وقد زعم بعضهم ومن جملتهم (سيكار) هذا الذي بالمغرب قد ألف كتاباً في الطعن على الإسلام ، وهو الذي يكتب في مجلة «مراکش الكاثوليكية» أن المراد بلفظة «العلم» في القرآن هو العلم الديني ولم يكن المقصود به العلم مطلقاً لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وإيجابه للتعليم .

وقد أتى سيكار من المفاظة في هذا الباب ما لا يستحق أن يرد عليه لما فيه من المكابرة في المحسوس . وكل من تأمل مواقع هذه الآيات المتعلقة بالعلم وبالحكمة وغيرها مما يبحث على السير في الأرض والنظر والتفكير يعلم أن المراد هنا بالعلم هو العلم على إطلاقه متساوياً لكل شيء ، وإن المراد بالحكمة هي الحكمة العليا المعروفة عند الناس ، وهي غير الآيات المنزلة والكتاب كما يدل عليه العطف وهو يقتضي المغايرة . ويعزز ذلك الحديث النبوي للشهير : «اطلبوا العلم ولو في الصين» (١) .

فلو كان المراد بالعلم هو العلم الديني كما زعم سيكار ما كان النبي ﷺ يبحث على طلبه ولو في الصين إذ أهل الصين وثنيون لا يجملهم النبي مرجعاً للعلم الديني كما لا يخفى .

وفي بعض الآيات من القرائن اللفظية والمعنوية ما يقتضي أن المراد بالعلم علم الكون لأنه في سياق آيات الخلق والتكوين وهي في القرآن أضعاف الآيات في العبادات العملية كالصلاة والصيام كقوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ

(١) نتمته «فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه العقيلي وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر عن أنس وفيه عند الأخير زيادة أخرى في فضل العلم وله طرق يقوي بعضها بعضاً (ر) .

مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدُدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
وَعَرَايِبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (١) .

أي العلماء بما ذكر في الآية من الماء والنبات والجبال وسائر المواليذ المختلفة
الألوان وما فيها من أسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام .

وقد كنا ظننا هذا الرجل على شيء من حب الحقيقة ، فلما أنكر المدنية
الاسلامية رددنا عليه في المنار وجادلناه بالتي هي أحسن ، وعظمنا من قدر
المدنية المسيحية ، ووقرنا منها ورددنا على القائلين من الأوروبيين بأن النصرانية
كانت وقفاً لسير المدنية وسبباً لسقوط اليونان والرومان إلى غير ذلك .

فكان من سيكار هذا ان نشر سلسلة مقالات تتضمن من الطعن على الاسلام
منا لو جئنا نرده لم نستغن عن إيراد شبه واعتراضات تتعلق بالدين المسيحي
بما نأبى ان نتعرض له لأنه ليس من العدل ولا من الكياسة ولا من حسن
الذوق ان نغيظ إخواننا المسيحيين من أجل رجل اسمه سيكار او غيره من
هذه الطبقة من الدعاة والمبشرين ، هذا رائداً الى ما رأيناه في كلامه من
الخلط والخبط والمغالطة التي من قبيل قوله : إن العلم المقصود في القرآن
ليس هو العلم المعروف عند الناس بمفهومه المطلق ، وإنما هو العلم الديني فقط
لأن القرآن لا يهه شيء من علوم الدنيا ! فكابر كهذا لا يستحق الجواب .

ثم علمنا ان المسيو سيكار هذا هو من مستخدمى فرنسة في الرباط بإدارة
الأمر الاسلامية وأنه هو والمسيو لويس برينو مدير التعليم الاسلامي هناك -

(١) فاطر : الايتان ٢٧ و ٢٨ .

والقومندان ماركو مدير قلم المراقبة على الجرائد والمطبوعات - والقومندان
مارتي مستشار العدالة الاسلامية - ورهط آخرون هم الذين لعبوا الدور الأهم
في قضية العمل لتنصير البربر .

وما كان استخدام فرنسة لهم في مهمات كلها عائدة للاسلام إلا على نية
نقض كل ما يقدرون عليه من بناء الاسلام بالمغرب . وستذوق فرنسا ولو
بعد حين وبال ما عملته وتعمله من التعرض للدين الاسلامي الذي تعهدت في
معاهداتها باحترامه .

إننا لا نريد لفرنسا إلا خيراً ولكننا ننصح لها بالعدول عن هذه السياسة
التي هي على خط مستقيم ضد المبادئ التي تعلنها عن نفسها من أن الأديان في
نظرها على حد سواء؟ فان كانت الأديان عند الدولة الافرنسية على حد سواء
فلماذا هذا الاجتهاد في تنصير البربر وهم مسلمون؟ ولماذا هذه المساعي الخيثة
في تنصير العلويين سكان جبال اللاذقية وفي فصلهم عن الوحدة السورية والحال
أن العلويين هم فرقة من الفرق الاسلامية كما لا يخفى. وكذلك ننصح الانكليز
بالعدول عن دعايتهم الدينية في السودان والأوغاندة وننصح هولاندة بترك
دعايتها الدينية بين مسلمي اندونيسيا .

كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية :

يقول بعض الناس ^(١) ما لنا وللرجوع الى القرآن في ابتعاث هم المسلمين
الى التعليم فان النهضة لا ينبغي ان تكون دينية بل وطنية قومية كما هي
نهضة أهل أوروبا ، ونجيبهم ان المقصود هو النهضة سواء كانت وطنية أم
دينية ^(٢) على شرط ان تتوطن بها النفوس على الحب في حلبة العلم، ولكننا

(١) أي من ملاحظة المسلمين الجاهلين او التجاهلين لحال اوروبا في عصبيتها الدينية (ر).

(٢) ولكن السؤال عنه هو نهضة المسلمين من حيث هم مسلمون .

نخشى إن جردناها من دعوة القرآن أن تفضي بنا الى الالحاد والاباحة وعبادة الأبدان واتباع الشهوات ، مما ضرره يفوت نفعه ، فلا بد لنا من تربية علمية سائرة جنباً الى جنب مع تربية دينية ، وهل يظن الناس عندنا في الشرق ان نهضة من نهضات أوروبا جرت دون تربية دينية ؟ وهل جرت نهضة اليابان دون تربية دينية ؟

أفلم يقل رئيس نظار ألمانيا في الرايستاغ منذ ثلاث سنوات : ان ثقافتنا مبنية على الدين المسيحي؟ وهذا هو اعلان المانيا التي هي المثل الأعلى في العلم والصناعة واتقان الآلات والأدوات، لا ينازع في ذلك أحد ، ولا أعداؤها.

أفتوجد جامعة في ألمانيا أو انكلترا أو غيرها من هذه الممالك الراقية من دون ان يكون فيها علم اللاهوت المسيحي ؟^(١)

ثم انهم عندما يقولون : في اوروبا (نهضة وطنية) أو (نهضة قومية) أو جامعة وطنية أو قومية ، لا يكون مرادهم بالوطن التراب والماء والشجر والحجر ، ولا بالقوم السلالة التي تنحدر كلها من دم واحد ، وإنما الوطن والقوم عندهم لفظتان تدلان على وطن وأمة بما فيها من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعاً ذلك معاً ، وهذا الذي يناضلون عنه ويستبسلون كل هذا الاستبسال من أجله .

(١) وهذا بعد التربية المنزلية الدينية المحضة والتربية المدرسية الابتدائية وجلها دينية (د).

أسباب انحطاط المسلمين

في العصر الأخير

من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل ثقة بأنفسهم وهو من أشد الامراض الاجتماعية وأخبت الآفات الروحية لا يتسلط هذا الداء على إنسان إلا أودى به ولا على أمة إلا ساقها الى الفناء وكيف يرجو الشفاء ، عليل يعتقد بحق أو يباطل ان علتة قاتلته ؟ وقد أجمع الأطباء في الامراض البدنية ان القوة المعنوية هي رأس الادوية وان من اعظم عوامل الشفاء إرادة الشفاء فكيف يصلح المجتمع الاسلامي ومعظم أهله يعتقدون انهم لا يصلحون لشيء ولا يمكن ان يصلح على أيديهم شيء، وانهم إن اجتهدوا أو قعدوا فهم لا يقدرّون ان يضارعوا الأوروبيين في شيء .

وكيف يمكنهم ان يناهضوا الأوروبيين في معترك وهم موقنون ان الطائفة الأخيرة ستكون للأوروبيين لا محالة ؟ فصار مثلهم مع هؤلاء مثل اولئك الاقران الذين كان يبطش بهم سيدنا علي رضي الله عنه في وقائعه فقد حدثوا انه سمعت له في صفين اربعمائة تكبيرة وكان من عادته كرم الله وجهه انه يكبّر كلما صرع قرناً ، فقيل له في ذلك فأجاب :

كنت إذا حملت على الفارس ظننت أني قاتله فكنت انا ونفسي عليه .

وهكذا اصبح المسلمون في العصر الاخيرة يعمقون انه ما من صراع بين المسلم والاروروبي إلا سينتهي بمصرع المسلم ولو طال كفاحه . وقر ذلك في نفوسهم وتحمّر في رؤوسهم لا سيما هذه الطبقة التي تزعم انها الطبقة المفكرة الماقلة المولمة بالحقائق الصادقة عن الخيالات بزعمها فانها صارت تقرر هذه القاعدة المشؤومة في كل نادٍ وتجعل التشاؤم المستمر والنعاب الدائم من دلائل العقل وسعة الادراك وتحسب اليأس من صلاح حال المسلمين من مقتضيات العلم والحكمة وما زالت تنفخ في بوق التشبيط وتبث في سواد الأمة دعاية العجز الى ان صار الاستخذاء يبدن الجميع الا من رحم بك وكانت روحه من اصل فطرتها قوية عزيزة .

ولم تقتصر هذه الفئة على القول بأن حالة المسلمين الحاضرة هي متردية متدنية لا تقاس بمجالة الافرنج في قليل ولا كثير بل زعمت ان التعب في مجارة المسلمين للافرنج في علم او صناعة او كسب او تجارة او زراعة او حرب او سلم او ابي منحى من مناحي العمران هو ضرب من المحال وشغل بالعبث لا يليق بالمعقل اتيانه ، وكان المسلمين من طينة والافرنج من طينة اخرى فعملوا الافرنج على المسلمين أمر لا بد منه وكأنه كتب في اللوح المحفوظ وجفّ به القلم ولم يبق امام المسلمين الا ان يعلموا كونهم طبقة منحطة عن طبقة الافرنجة ويعملوا بمقتضى هذه العقيدة .

وكثيراً ما وقعت لي مجادلات مع هؤلاء المفلسين بالفارغ صفار النفوس ولم يكن يدخل في عقولهم المنطق ولا يعظمهم التاريخ ولا ينفع في اقناعهم علم الطبيعة ولا التشريح ولا يحبك بهم استنتاج ولا قياس وذلك لما غلب عليهم من آفة الذل ومرض الاستخذاء وقد احس الاوروبيون بما عند المسلمين من هذه الحالة الروحية الموافقة لمصالحهم الاستعمارية فصاروا يروجونها فيهم ويقولون عندهم هذه العقيدة فانطبق على هؤلاء الناهقين بالبين الآية الشريفة :

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (١) .

ولم يكن الافرنجة وسعاتهم ودعاتهم بملومين على ترويح هذه النظريات
التاعسة بين المسلمين لأنها مما يسهل الاستمرار ويمهد طريقه ويكفيهم المقاتلات
والمنازلات ويوفر عليهم المزاومات والسابقات ويجعل لهم التفوق بلا نزاع
والتسلط دون جدال ولكن العجب كل العجب من هؤلاء المسلمين الذين
أمرهم الله ليتصفوا بالعزة ويتسموا بالانفة ويستوفوا تمام الرجولة كيف كانوا
ينقادون لهذه الاضاليل التي ما لها عبوديتهم للأجانب . لقد صدق فيهم كلام
الله تعالى :

وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢) .

واكثر ما كانوا يؤكدهم للناس من عدم قابلية المسلمين هو استحالة قيامهم
بالمشروعات العمرانية والأعمال المادية وكل ما يتعلق به حساب ورقم او
مساحة وقياس فإذا قلت لهم : إن كان المسلمون لا يحسنون هذه العلوم كما
ترعمون فكيف استطاعوا ان يؤثروا هذه الآثار الباهرة التي يؤمها السياح من
اقاصي الدنيا وكيف ملأوا مصر والشام والعراق والمغرب ويران والهند
والقسطنطينية وغيرها مباني ومؤسسات تبهر الأبصار وتحير الأفكار وكانت
لهم معامل ومناجح ودور صناعات متنوعة وغير ذلك مما يعد في الصناعة من
الطراز الأول اجابوك :

قد كان هذا قبل ان يرقى الافرنج هذا الرقي الحديث وقبل ان يكشفوا

(١) البقرة : من الاية ١٠ .

(٢) التوبة : من الاية ٤٨ .

امرار الكون التي كشفوها وغير ذلك مما ليس يجواب عن هذا الخطاب
والموضوع هو في واد وهذا في واد .

فنحن نريد ان نقول ان كل من سار على الدرب وصل وان المسلمين إذا
تلمموا العلوم العصرية استطاعوا ان يعملوا الأعمال العمرانية التي يقوم بها
الافرنج وانه ليس هناك فرق في القابلية البشرية ولكن على شرط ان ينفذ
المسلمون عن أنفسهم غبار الخمول وبلغوا هذه القاعدة التي قد كانت من أسباب
شقائهم زمناً طويلاً وهي ان كل عمل عمراني في الشرق لا بد من ان يستعار
له شركة أوروبية لتقوم به والا فلا يستطيع عمله . ولقد أتت التجارب بعد
ذلك بما يثبت فساد هذه النظرية بتمامها وتمكن المسلمون في كثير من البلاد
من انشاء شركات صناعية وتجارية وتأسيس معامل ومناسج ودور صناعة
نجحت نجاحاً باهراً كذب مزاعم تلك الفئة المثيطة وصيرها موضوعاً للهزء .

ولما عزم السلطان عبد الحميد الثاني العثماني على مد سكة حديدية من دمشق
الى الحرمين الشريفين قوبل هذا المشروع أو انشد بمزيد الاستغراب تبعاً للعادة
ومن الناس من ضحكوا به وقالوا :

نحن نرى انفسنا عاجزين عن انشاء طريق عجلات فكيف نستطيع ان
ننشئ سكة حديدية طولها يزيد عن الفي كيلومتر وأنسى لنا المال والعلم
اللازمان لمشروع عظيم كهذا ؟ واغرب من تشاؤم المسلمين وشعورهم بالعجز
عن القيام بهذا العمل ان المهندس الألماني الكبير مايستر باشا الذي انتدبه
السلطان لرئاسة مهندسي هذا الخط هو نفسه كان لا يعتقد امكان انشاء
هذا الخط وكان هذا الرجل صديقي فسألته مرة عن رأيه فيه فقال لي انه
يرجو ايصاله الى معان وهي مسافة اربعمائة كيلومتر من دمشق فأما مده
من معان الى المدينة فيكاد يكون من المستحيل فسألته هل ذلك من عدم
وجود المال ؟

قال : على فرض وجد المسال فان دون انشاء الخط موانع طبيعية يتمنر التغلب عليها فان السكة يلزم لها ماء في كل محطة والماء لا يوجد إلا في محطات معدودة وان انشأنا صهاريج تملأ بماء المطر لم يؤمن ان الحرارة في الصيف تنشف بشدتها مياه الصهاريج وهناك صعوبة أخرى وهي ان الخط سيمتد في أمكنة كلها رمال وقد تهب الرياح السافياء فتأتي برمال تقطي الخط ولا يمكن منع ذلك إلا بزرع الخلفاء والقصب والطرفاء وكل هذا يلزمه ماء حتى ينمو وابن الماء من تلك الأراضي ؟ هذا كان كلام المهندس الكبير لي من جهة الطبيعة . ثم ذكر الخطر الواقع على الخط من اعراب البادية .

فأما أنا فكنت معتمداً خلاف اعتقاد الآخرين قائلاً بأن ليس ثمة صعوبات لا يستطيع تذليلها وكنت من الذين ينددون بالمشائين والتمهكين ونظمت في هذا المشروع قصيدة احث بها الأمة على التبوع لأجله وتبرعت انا من جيبى بخمسة عشر جنيهاً وذكرت مسا سيكون لهذا الخط من الفوائد العمرانية والاقتصادية والمسكرية فضلاً عن تسهيل الحج الذي هو هدفه الأسمى وكان مطلع قصيدتي :

أَلَا يَا بَنِي الْإِسْلَامِ قَهْلٌ مِنْ مَسَاعِدِ

لِفِعْلِ سَمَاوِيٍّ الْمُثَوَّبَةِ مَا جَدِ

فلما طبعت القصيدة ونشرتها سلقني الكثيرون من أولئك الغربان بالسنة حداثي وكأني كفرت في تنويعي بمشروع يربط الشام بالحجاز ويختصر المسافة بينها على الحجاج من ٤٠ يوماً الى أربعة أيام وهزأوا ما شاؤوا وتمنطقوا بقدر ما أرادوا . ولكن كل تلك الفلسفة لم تجدهم قتيلاً ونجى الخط الحديدي من دمشق الى المدينة المنورة وهي مسافة الف واربعمئة كيلومتر ولولا خلع

السلطان عبد الحميد لكان قد تم الى البلد الحرام ، ولكن من بعده فترت الهمة بإيكاله وجاءت الحرب وعواقبها فقضت بإهماله .

ثم ان هذا الخط جاء من أبداع الخطوط الحديدية في العالم ، صادفت مرة فيه أحد كبراء مسلمي الهند من أعضاء مجلسها الأعلى وهو ممن تثقفوا ثقافة انكليزية محضة وتخرج من جامعة اكسفورد فقال لي : لا يوجد في نفس انكلترة سكة حديدية تضاهي في الاتقان هذه السكة ولو لم أشاهدها بعميوني ما صدقت بوجودها . وبالفعل لم يصدق كثير من المسلمين اخبارها فأرسلوا وفوداً يشاهدونها بأعينهم ، فكان المسافر يصل من دمشق الى المدينة في ليلتين وكانت دمشق تستفيد كل سنة من هذا الخط ما يقارب ٢٠٠ الف جنيه وعمرت القرى التي مر بها الخط وارتفعت أثمان الأراضي ارتفاعاً مدهشاً وتضاعف عمران المدينة المنورة اضعافاً ، هذا فضلاً عما توفر من المشاق والاختار على الحجاج والزائرين والنجار والمسافرين .

واما الصعوبات الطبيعية التي كانوا يقدرونها فلم يصح منها شيء واما الاعراب فلم يقع منهم على الخط ادنى اعتداء . وكان عند كل محطة من محاط الخط قلعة فيها جند للمحافظة وكل تلك المحطات والقلاع كانت مبنية امتن بناء . ولما كان لا يتاح لغير المسلمين دخول ارض الحجاز فكان انشاء الخط ابي القسم الداخلى منه في الحجاز كله على أيدي مهندسين مسلمين حتى ان مايستر باشا الالماني نفسه لم يتجاوز في اشرافه بلدة تبوك .

ولما ذهبت الى المدينة المنورة زائراً للنبي ﷺ وذلك سنة ١٣٣٠ هـ . كنت اسمع ان عدم مد الخط الحديدي من المدينة الى مكة نشأ عن اعتراض قبائل العرب من حرب وغيرها وانهم لا يسمحون بمرور الخط في أراضيهم ففحصت عن هذه القضية فوجدت اكثرها هراءً وافتراءً ، وسألت شيوخ القبائل عما يقال من معارضتهم في انشاء السكة فقالوا :

لو كنا معارضين لانشاءها لعارضنا ذلك من أول دخولها في أرض الحجاز،
والحال اننا كنا مساعدين للحكومة على هذا المشروع بكل قوانا ، فسألتم
التوقيع على عريضة للدولة يطلبون فيها تمديد هذا الخط من المدينة الى
مكة ، فوقع عليها جم من أولئك المشايخ ، ولم تكن الدولة عهدت إليّ بهذه
المهمة وإنما قمت بها خدمة للوطن والامة .

ولولا طروء الحرب العامة بعد ذلك بقليل لكان بوشر بمد الخط الحديدي
من المدينة الى مكة . فلما انتهت الحرب العامة واحتلت انكلترا فلسطين
وفرنسا سوريا كان أول ما توجهت اليه همم الانكليز والفرنسيين هو تعطيل
هذا الخط الحديدي الذي يربط القطر الشامي بجزيرة العرب ويقرب صلوات
المسلمين بعضهم ببعض .

وكم احتج المسلمون على تعطيل هاتين الدولتين لهذا الخط الحيوي للشام
والحجاز وكم أبدوا وأعادوا في ان هذه السكة الحديدية الحجازية كانت
تركيا قد جعلتها من جملة أوقاف المسلمين فلا يحق لدولة أجنبية ان تمس
بأوقافهم فلم يكن ذلك ليقتنع تينك الدولتين بالاعتدال ورفع الاعتداء ولا
تزال هذه المؤامرة الفظيعة على هذا الحق المقدس من حقوق المسلمين نافذة الى
يوم الناس هذا . فإذا قام شخص مثلنا يذكرهم بهذا الاعتداء القبيح ضاقت
صدورهم به ودسّ عليه الانكليز في السر وطعن عليه الفرنسيين في الجهر
ونعتوه « بمدو فرنسا » وما أشبه ذلك .

والحال اننا إنما نريد صلاح احوال بلادنا ولا نضمّر لأحد سوءاً . والشاهد
الذي نقصده هنا هو ما سبق انشاء سكة الحجاز من تشاؤم كثير من
المسلمين واستهزائهم واستنكارهم وتأكيد انه خط محال أنشاؤه ومشروع
يكون من قلة العقل تعليق الأمل به . وهذا مثال من أمثلة كثيرة لا يمكن
استقصاؤها من كثرتها فقلنا تدخل بلداً من بلدان الاسلام ولا يوردون لك
من هذه الأمثال .

وكما ظن المسلمون انهم لا يحسنون شيئاً من المشروعات العمرانية وانه لا بد لهم من الاوروبي حتى يدخلوا الاصلاح في بلادهم وانه من دون الافرنجي لا يقدرّون على أية عمارة ولا مرفق ذي بال ، كذلك ذهبوا الى انه لا حظ لهم في الأعمال الاقتصادية أصلاً وان كل مشروع اقتصادي إسلامي صائر الى الجبوت إن لم تكن له أركان افرنجية وقد طال نومهم على هذه العقيدة الفاسدة حتى لم يبق في بلادهم شيء اسمه اقتصاد إلا كانت إدارته بأيدي الافرنج أو اليهود وحتى لو دعا منهم داع الى تأليف شركة تجارية أو صناعية أو زراعية لم يدخلها صاحب رأس مال من المسلمين إلا إذا كانت إدارتها بيد افرنجي أو يهودي . وكلمة الجميع عندهم : نحن لا يخرج من أيدينا عمل ولا نصلح لشيء .

وقد بقي اليهود والافرنجة يتمتعون بخيرات بلاد الإسلام قرونًا وحقبًا طوالاً دون مزاحم ولا مراغم ويستدرون فيها أخلاف كل صنعة ويستورون زناد كل مرفق إلا ما ليس له بال حتى ولو قدر ما ضاع على المسلمين في ظل هذا الوهم بالمليارات وعشرات المليارات ما كانت فيه مبالغة وكان المسلمين لم يوجدوا في الدنيا إلا عملة أو اكرة يشتغلون بأيديهم ولا يشتغلون بعقولهم .

وبهذا السبب خلا الميدان في بلاد الإسلام لأصناف الاجانب يركضون فيه جياذ قرائحهم وعزائمهم ويجمعون الثروات التي ليس وراها متطلع لمزيد وذلك على ظهور المسلمين ومن أكياسهم . وقد يكثر التحدث بما يصيب الأجانب من هذه المكاسب الطائلة التي كان أهل الإسلام أولى بها لأنها من بلادهم ولا تحفزهم همة ولا تأخذهم غيرة فيجربوا الخب في الحلبات الاقتصادية الى أن نبغ في مصر محمد طلعت باشا حرب ، فكان في هذا الباب أمّة وحده وأدرك بواسع عقله وثاقب فكره ان ليس في هذا الموضوع شيء يفوق طاقة المسلمين ولا مما يتعذر وجود أدواته عندهم وان قصورهم فيه عن مباراة

الاجانب لم يكن إلا من آثار ذلك التوهم القديم الذي هو انهم لا يحسنون الجري في أي ميدان من ميادين الاقتصاد وقد وجدت عند هذا الرجل في جانب رجاحة العقل وسداد الحكم همه بعيدة قعساء ونزعة وطنية ضافية من الاقضاء سالمة من الأهواء فاجتمعت فيه جميع الشروط اللازمة لمن شاء أن يبدأ بالشرق بنهضة اقتصادية تزاخم بالمناكب وثبات الاجانب ومما يندر في الرجال الجمع بين الحساب الدقيق والخيال الواسع وهما قد انتظما جنباً الى جنب في دماغ طلعت باشا حرب فكانت سعة خياله مساعدة له على الاقدام نحو المشروعات التي هي مظان الارباح وكانت دفعة حسابه مساعدة له على نجاحها وضمان أرباحها . وبالاختصار اقتحم طلعت حرب معركة هي الأولى من نوعها في المجتمع الشرقي .

وعندما باشر جمع رأس المال الذي كان حدده لانشاء بنك مصر وهو ٨٠ ألف جنيه عانى في ذلك احوالاً ونحت جبلاً وذلك لما ران على عقول المسلمين من انهم لا يقدرون على الاستقلال بعمل اقتصادي وأن كل عمل منهم في هذا السبيل حابطٌ من نفسه هابطٌ على أم رأسه فلما أخذ طلعت باشا حرب يتقاضى اغنياء مصر المشاطرة في هذا المشروع لبوا نداءه حياءً منه لا اعتقاداً بأنه سيأتي بشمرة وبقيت ثقتهم بأجمعها في بنوك الاجانب ، وما زال معولهم عليها الى أن شاهدوا بأعينهم النجاح الذي كاد يكون معجزة في نظرهم وارتفع رأس مال بنك مصر من ٨٠ ألف جنيه إلى مليون جنيه واحتوت خزائنه من الودائع على عدة ملايين من الجنيهات واشتمل على املاك وسلفات وشركات متعددة متنوعة تقدر بملايين أخرى من الجنيهات بحيث زادت الأموال التي تحت تصرف البنك على عشرين مليون جنيه وكل هذا في ثماني عشرة سنة أنشأ فيها طلعت باشا حرب ومدحت باشا يكن ورفاقهما على حساب بنك مصر شركة مصر للغزل والنسيج التي معملها في المحلة هو من أكمل وأعظم معامل الغزل والنسيج في العالم يعمل فيه ١٨ ألف عامل يندر فيهم غير

المصري ويسد من المنسوجات القطنية ثلث حاجة القطر المصري بأجمعه فيكون قد وفر على المملكة المصرية ثلاثة ملايين جنيه سنوياً كانت من قبل تخرج من جيوب المصريين لتدخل في جيوب الأوروبيين .

وهناك من توابع بنك مصر شركة مصر للنسج الحرير وشركة مصر للتمثيل والسينما وكل هذه نالت معروضاتها الجوائز الكبرى في المعرض الدولي الباريزي سنة ١٩٣٧ ثم شركة مصر لمصايد الأسماك وشركة مطبعة مصر وشركة مصر للطيران وشركة مصر للسياحة وناهيك بشركة مصر للملاحة البحرية وما أنشأته من المنشآت الجوارية كالإعلام مثل زمزم والكوث والنيل وغيرها مما كاد يكون كالأحلام فصار الحجاج يبلغون أحجاز على بواخر يرون بها أنفسهم في مثل قصور الملوك فراهة ورفاهة وراحة ونعيماً ومقاماً كريماً ، وصار سياح مصر الكثيرون إلى أوروبا في فصل الصيف يركبون تحت العلم المصري الشريف بواخر لو قرنت ببواخر الأمم الأوروبية حللت بينها في الصف الأول هذا بعد أن قضينا كل الدهر نسير ونسري في البواخر الأجنبية ونؤدي إليها أموالنا بلا سبب سوى قصور ممنا عن إنشاء بواخر خاصة بأوطاننا بها ركوبنا وعلينا نقل بضائعنا وليس هنا محل تفصيل مشروعات طلعت باشا حرب باعث النهضة الاقتصادية في الشرق لنخوض في هذا العباب ولا مقصدنا تمجيده والاشادة بماآثره ولو بالحقيقة ، وإنما كان إيرادنا هذه القصة على سبيل المثال لما كان عليه المسلمون من الجبن في المواطن الاقتصادية إلى أن هب هذا الرجل مدير بنك مصر فأيقظهم من سباتهم وأعلمهم أنهم رجال كما الأوروبيون رجال وانهم إذا شجذوا غرار عزائمهم وأعملوا أسننة قرائنهم قدروا على ما يقدر عليه الأجانب من الأعمال الاقتصادية الكبيرة .

وها نحن أولاء الآن نرى العاملين في بنك مصر وفي الشركات المضافة إليه ثلاثين ألف مستخدم وعامل كلهم مصريون إلا النادر الأندر ، وهكذا بدأ المسلمون يقتحمون معارك الحياة الاقتصادية في كل فن من فنونها وتولدت

عندهم في أنفسهم ثقة كانت محجوبة عنهم من قبل بحيث ان أحمد حلمي باشا والسيد عبد الحميد شومان من فلسطين أسسا في القدس بنكاً كل رأس ماله خمسة عشر الف جنيه ، وتوفقا بحسن ادارتها الى أن صيرا هذا البنك العربي الوحيد في القطر الشامي من البنوك المعدودة ذوي الفروع الكثيرة صار يشتمل على خمسمائة الف جنيه .

وكذلك أسسا بنكاً زراعياً شاطر في تأسيسه أكثر من خمسة آلاف مساهم من عرب فلسطين وبلغ رأسماله فيفاً ومائة الف جنيه ، فسدت بهذين البنكين الأمة العربية في فلسطين حاجتها واستغنى ذوو الهمة منها عن الالتجاء إلى بنوك الأجانب ، وفهم الناس ان هؤلاء ليسوا فوق الشرقيين وأنهم لا يمجزون .

إنما جئنا بهاتين المسألتين للاستدلال على الاضرار الفظيمة التي كان يحدثها بالمسلمين عدم ثقتهم بأنفسهم .

ولعلمهم بدأوا يتعافون الآن من هذا المرض الاجتماعي المهلك والله غالب على أمره .



هكذا إذا توجهت الهمم

الإصلاحات المعنوية والمادية في البلاد المقدسة

توالت على بلاد الإسلام المقدسة قرون واحقاب كانت فيها أشد البلاد افتقاراً إلى الإصلاح وأقربها إلى الفوضى وأقلها أمانة سُبُل وراحة سكان واكثرها عيثاً وفساداً . وكانت هذه الحالة فظيعة جداً مخجلة لكل مسلم مرمضة لكل مؤمن حجة ناصعة للأجانب على المسلمين الذين لا يقدرّون أن ينكروا ما في الحجاز من اختلال السبل واضطراب الحبل مع كونه هو مهد الاسلام ومركز الحجيج المام في كل عام الى بيت الله الحرام والمشاعر العظام ومهوى قلوب يتأجج بها الفرام لزيارة مرقد الرسول عليه الصلاة والسلام .

كل الأجانب يستظهرون بهذه الحالة على دعوى ان الإسلام لا يلتئم مع العمران وانه هو والفوضى توأمان . وانه لو كان ديناً عمرانياً لما كانت تكون هذه الحالة السيئة في مركزه ولما عجز عن إقامة العدل والأمن في مأزره .

وحقيقة الحال هي ان تلك الفوضى لم تنشأ إلا عن اهمال العمل بقواعد الشرع الإسلامي وعن ارخاء العنان لبعض الأمراء الذين كانوا يلون أمر الحجاز مدلتين على الناس بما لهم من النسب النبوي الشريف الذي كان يحول

بين سلاطين الإسلام وبين تشديد الوطأة عليهم أو إزهاف الحد فيهم ، وقد كان هذا من خطئ الرأي ومن التقصير في جانب الشرع فان الشريعة الإسلامية لا تعرف نسبا ولا حسبا .

فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١) .

وان الله تعالى قد جعل التقوى فوق كل المناقب والمحامد وقرر ان من قصر به عمله لم ينمض به نسبه ومن المروي عن النبي ﷺ : «إلا إن بعض آل بيتي يرون أنفسهم أولى الناس بي وليس الأمر كذلك . إنما أوليائي المتقون من كانوا وحيث كانوا . إلا اني لا أجزى لأهل بيتي أن يفسدوا ما أصلحت » .

هذا حديث نقله لنا خاتمة المحدثين المرحوم السيد بدر الدين الحسيني المغربي الدمشقي وكيف كانت درجة ثبوته فهو مطابق لروح الشرع تتفجر معانيه من كل ناحية من الكتاب .

ولهذا كان سلاطين الإسلام من وقت الى آخر يندرون من أمراء الحرمين من كانوا يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق . ولقد ذهب مثلا ذلك الكتاب الذي كتبه أحد سلاطين مصر من المماليك إلى أحد أمراء مكة المكرمة وهو الذي يقول فيه :

« اعلم ان الحسنه في نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن ، والسيئة في نفسها سيئة وهي من بيت النبوة أسوأ ، وقد بلغنا انك بدلت حرم

(١) المؤمنون : ١٠١ .

الامن بالحيفة ، وأتيت ما يحمره له الوجوه وتسود الصحيفة ، فان وقفت عند حدك وإلا أغمدنا فيك سيف جدك .

ولا ينبغي أن يفهم من هنا ان هؤلاء الأمراء لم يكن فيهم إلا من استحق هذا الوصف . كلا . فقد وجد فيهم الامراء العادلون إلا أنه قد بقيت مع الأسف أحوال الحجاز غير مستوية وأعراب البادية يسطون على الحجاج وليس لداة معرفتهم علاج وكانت كل من الدولة العثمانية والدولة المصرية ترسل طوابير من الجند النظامي مصحوبة بالمدافع وسائر آلات القتال لأجل خفارة قوافل الحج وتؤدي الى زعماء القبائل الرواتب الوافرة وكل هذا لم يكن يمنع الأعراب ومن لا يخاف الله من الدعار من تخطف الحجاج في كل فرصة تلوح لهم .

وكثيراً ما كانت قافلة الحج تضطر الى الرجوع وقد فاتها الحج أو الزيارة بعد ان قصدوا ذلك من مكان سحيق وتكلفوا بذل الأموال وتجشموا مشاق الأسفار في البر والبحر فكانوا يذويون من الشوق على ما فاتهم ويتحرقون من الوجد ويبكون بصيب الدمع والناس بأجمعهم يحوقلون ويقولون :

(ليس لها من دون الله كاشفة) ذاهبين الى ان سطو الأعراب هؤلاء داء عضال لا تنفع فيه حيلة ولا وسيلة وقد عمت بهم البوارى والى الله المشتكى . وهكذا توالى القرون والحقب والناس على هذا الاعتقاد لا يتحزحون عنه الى ان آل أمر الحجاز الى الملك عبد العزيز بن سعود منذ بضع عشرة سنة فلم تمض سنة واحدة حتى انقلب الحجاز من مسبعة تزار فيها الضواري في كل يوم بل في كل ساعة إلى مهد أمان وقرارة اطمئنان ، ينام فيها الأنام بلاء الأجباف ولا يخشون سطوة عاد ولا غارة حاضر ولا باد ، وكان أولئك الأعراب الذين روعوا الحجاج مدة قرون وأحقاب لم يكونوا في الدنيا وكان هاتيك الذئاب الطلس تحولت الى حملان فلا نهب ولا سلب ولا قتل ولا ضرب ، ولو شاءت الفتاة البكر الآن ان تذهب من مكة الى المدينة أو من

المدينة الى مكة أو إلى أية جهة من المملكة السعودية وهي حاملة الذهب والالماس والياقوت والزمرد ما تجرأ أحد أن يسألها عما معها .

ما من يوم إلا وتُحْمَل فيه إلى دوائر الشرطة لقسَط متعددة ويؤتى بضوال فقدما أصحابها في الطرق وأكثر من يأتي بها الأعراب أنفسهم خدمة للامن العام وإبعاداً للشبهة عنهم وعن ذويهم فسبحان محوّل الاحوال ومقلّتب القلوب ووالله لا يوجد في هذا العصر أمن يفوق أمن الحجاز لا في الشرق ولا في الغرب ولا في أوروبا ولا في أمريكا ، وقد تمسّى المستر كراين الاميركي صديق العرب الشهير في احدى خطبه أن يكون في وطنه امريكا الامن الذي رآه في الحجاز واليمن .

وكل من سكن أوروبا وعرف الحجاز في هذه الايام يحكم بأن الأمانة على الأرواح والأعراض والأموال في البقاع المقدسة هي أكمل وأشمل وأوثق أو تاداً وأشد أطناباً منها في الممالك الاوروبية والامريكية ، فأين أولئك الذين كانوا يقولون ان الاعراب لا يقدر على ضبطها انسان وان سكان الفيافي هم غير سائر البلدان فما هو ذا ابن سعود قد ضبطها بأجمعها في مملكته الواسعة ومحا أثر الغارات والثارات بين القبائل وأصبح كل إنسان يقدر أن يحوب الصحارى وهو أعزل ويدخل أرض كل قبيلة دون ان يعترضه معترض أو يسأله سائل إلى أين هو غادٍ أو رائح ولو قيل لبشر ان بلاداً كان ذلك شأنها من الفزع والهول وسفك الدماء وقطع الطرق قد مرد أهلها على هذا البغي وهذا العدوان من سالف الأزمان وانه يليها ابن سعود فلا تمضي على ولايته لها سنة واحدة حتى يطهرها تطهيراً ويملاها أمناً وطمانينة لظن السامع انه يسمع احلاماً أو خرافات أو اتهم القائل في صحة عقله .

ولكن هذا قد صار حقيقة كلية وقضية واقعية في وقت قصير ، وما أوجده الالهة عالية وعزيمة صادقة وإيمان بالله وثقة بالنفس وعلم بأن الله

تعالى مؤيدٌ من أيده ناصرٌ من نصره يحث على العمل ويكافئ العامل
ويكره اليأس ويقول لعباده :

وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (١) .

وقد سرت بشرى الأمان الذي شمل البلاد المقدسة الحجازية فعمت اقطار
الإسلام وأثلجت صدور أبنائه وارتفعت عن الحجاز تلك المعرّة التي طالما
وجم لها المسلمون وذلك بقوة ارادة الملك عبد العزيز بن سعود والتزامه
حدود الشرع ولكن ليس هذا كل شيء وقد بقيت حاجات في الصدور فلم
يزل يعوز الحجاز وسائل كثيرة للراحة والهناء من قبيل الاصلاحات المادية
العمرانية التي يتوق اليها الحجاج ولا يجدونها وهي اصلاحات عصرية لا طاقة
للحجاز بها مع قلة الوارد الى بيت المال وازدياد الخرج على الدخل وايضاً مع
استئثار اكثر بلاد المسلمين بأوقاف الحرمين الشريفين وعدم استعمالها فيما
وقفت عليه .

وقد كان يتحتم على العالم الإسلامي ان يشاطر منذ زمن طويل في إزاحة
هذه العلة المادية التي يعتذر الحجاج بحق عن أن يقوم بها وحده لاسيما ان الحرمين
الشريفين ليسا للعرب وحدهم بل لجميع المسلمين .

فلم تزل هذه المسألة موضوع الأمانى ومنتجه الآمال والناس ينتظرون فيها
الابتداء بعمل من الأعمال الى أن عقدت مصر عزميتها على هذا الأمر الذي
تعتبر مصر جد أمينة بأن تطلع به وبأن تكون فيه السباقة والقدوة لغيرها .

ولم يطلق على مصر لقب « كنانة الله في أرضه » عبثاً بل هي من قديم
الدهر موئل الحجاج وانبار المُسْتَنِينَ من أهله ، وحسبك ما قامت به مصر

(١) الحجر : من الآية ٥٦ .

غام الرمادة من ميرة الحجاز بطلب سيدنا عمر الى سيدنا عمرو رضي الله عنهما ومن بعد ذلك لم تشتد بأهل الحرمين لأواء ولا عضتهم مسغبة بناها إلا أمرعت اليهم مصر بالاغاثة وتفريج الكربة ، لم تتخلف مصر عن هذا الواجب في وقت من الاوقات. وفي هذه الأيام عندما اشتد الشعور بوجود اصلاح الحجاز من الناحية العمرانية بعد أن أزيحت علمته من جهة تأمين السواحل كانت مصر هي الناهضة لم يد المساعدة اليه في هذا الشأن وكأنما كتب في اللوح المحفوظ ان يكون محمد طلعت باشا حرب هو الطالع حرباً على الخلل والفوضى والاهمال في عمران الشرق فوجه شطراً من همته للعلماء شطر البيت الحرام الذي قد أمرنا الله بأننا حيث ما كنا نولي وجوهنا شطره لئلا يكون للناس علينا حجة ، فكان طلعت باشا حرب في هذه الحلة ايضاً هو المجلي وكان قد بدأ من بضع سنين بتأسيس شركة الملاحة البحرية وانشأ البواخر الجواري كالاعلام البالغة الحد الأقصى من أسباب الراحة والانتظام مثل زمزم والكوثر وغيرها مما قد سبق الكلام عليه وحصل بذلك من الفرج لحجاج بيت الله الحرام ما تحدثت به الركبان وشاع ذكره في البلدان ولكن لم يكن هذا كل ما تسمو اليه همة هذا الرجل من إصلاح عمراني وتنظيم مادي في الحجاز فقصده إلى الارض المقدسة ونظر في مختلف العلل التي تجب معالجتها وعرض نتيجة مشاهداته على الحكومة المصرية التي أسرعته في اجابته الى تقرير اللازم من هذه الاصلاحات الحيوية بالاتفاق مع الحكومة السعودية التي بذلت كل ما في وسعها لأجل تسهيل الاتفاق وتيسير الارتفاق فكان ما ستنفقه الحكومة المصرية والحكومة السعودية في هذه النوبة من اصلاحات الحجاز لإنشاء طرق وانارة كهربائية وتوزيع مياه وتطهيرها وغير ذلك نحواً من مائتين وأربعين ألف جنيه .

وهكذا تكون الدولة المصرية قد نهجت السبيل لجميع الحكومات الإسلامية في العالم أن تشاطر في القيام على قدر إمكانها بما يستلزمه الحجاز

من الاصلاحات العصرية التي لا مندوحة عنها في قطر يؤتمسه المسلمون من المشارق والمغرب سالكين اليه البر والبحر والجو وهو مرشح حتماً بواسطة طرق الانتقال الحديثة لزيادة العمران وتكاثف السكان وليكون النموذجاً للجمال السوري والمعنوي ومثالاً لطيب النجعة في الشتاء والصيف فان الذي يشتمل عليه الحجاز من المصايف البديعة كالطائف والهدى ووادي محرم ووادي ليه وجبال الشفا العالية ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر يندر وجود اشباهه في المعمور كما فصلنا ذلك في رحلتنا الحجازية الموسومة « بالارتسامات اللطاف » لا يعوز هذه الأمكنة الممتازة بطيب هوائها وجودة مناخها وجمال إقليمها سوى الطرق المعبدة للسيارات حتى تقرب المسافات .

وقد نشرت شركة بنك مصر عن الاصلاحات اللازمة للحجاز تقارير وافية قيمة من اقلام المهندسين البارعين الذين أنفذتهم شركة البنك إلى الأراضي المقدسة مثل محمد الجمال بك نائب المدير العام لمعامل الغزل والنسيج المصرية الذي تكلم عن حالة الحجاز العمومية وقابلية أرضها وما يلزم لهذه البلاد من الأسباب الفنية والمدارس الصناعية وألم بمشروع المياه الذي يلزم له بناء خزان في مرتفع تعلو عنه عين زبيدة بحيث يسد كل عوز في مكة ومن جهة المياه وبمشروع إضاءة مكة بالكهرباء وبمشروع إنشاء طريق ضاحلة للسيارات من جدة إلى البلد الحرام أو سكة حديدية توصل بينهما .

ومشروعات أخرى تضمنها هذا التقرير الواضح المفيد الذي ليس فيه محل نظر سوى تخمينه عدد مسلمي المعمور بمائتين وخمسين مليوناً فهذا خطأ فاحش ناشئ عن متابعة إحصاءات قديمة أوروبية غير نزيهة ، أو ثمة خطأ مطبعي تصحيحه ٣٥٠ مليوناً (ثلاثمائة وخمسون مليوناً) وهذا أيضاً دون الواقع كما أوضحنا ذلك بالاحصاءات الرسمية والبراهين الساطعة في مجلتنا « لا ناسيون آراب » رداً على الزاعمين ان عدد المسلمين ٢٦٠ مليوناً مع ان مسلمي آسيا وحدها ينيفون على ٢٦٠ مليوناً وقد بقي غير داخل في هذا

الاحصاء مسلو افريقيا الذين يناهزون مائة مليون ومسلو أوروبا الذين هم من خمسة الى ستة ملايين .

ولقد اهتمنا بهذا الموضوع عمداً لما نحسه من تخرج صدور الاوروبيين بكثرة عدد المسلمين واجتهاد الدول الاستعمارية بخاصة ان ينقصوا من عددهم ويُخسروا من وزنهم . فمحصنا هذا البحث عدة مرات لما نشعر من فيتهم هذه .

ثم نعود إلى قضية اصلاحات الحجاز فنقول :

إن من جملة التقارير الوافية في هذا الموضوع تقريراً محرراً بقلم المهندس المحقق السيد حسن البهيمي الذي يتكلم على تحويل مجرى السيل عن مكة وعلى تحسين طريق المسمى بين الصفا والمروة وتحسين طريقة ورود المياه بعرفات من عين زبيدة وإنارة البلد الأمين بالكهرباء وتقريراً آخر في هذه المسائل نفسها من قلم السيد مصطفى ماهر رئيس مهندسي مياه الجزيرة والجزيرة بمصر ذهب فيه إلى أنه بعد أن يتم اصلاح توزيع عين زبيدة وعين حنين التي يتفرغ منها المجرى المسمى بعين الزعفران يجب ان يباشر الحفر في سائر الآبار والأودية التي هي مظان مياه غزيرة تفيض عن حلجة مكة من جهة شرب الشفة وتكفي للزراعة والبساتين قال : ومشروع المياه سيكون مفتاحاً للبحث عن هذه الكنوز الأرضية .

وتكلم المهندس المشار اليه عن بشر زمزم وقال إن في ماؤها املاحاً نافعة كألاح المياه التي يستشفى بها في أوروبا فهي من هذه الوجهة صالحة لتوضع في زجاجات معقمة مغلقة وتحمل الى الخارج وتباع فيكون منها ربح جزيل .

ثم أشار بالوسائل اللازمة لصيانتها من الجرائم الضارة وان يتولى عالم بكتريولوجي دوام تحليلها ليكون تمقيمها تاماً .

وتكلم عن عملية مياه عين زبيدة وبناء الخزانات اللازمة بتفاصيل ليس هنا مكانها .

وأصحب التقرير بالرسوم التي توضح كل شيء وأشار الى إنارة مكة بالقوة الكهربائية وما فيها من أرباح وفوائد وذلك كما قرره المهندسون الآخرون ولكل وجهة هو مولياها .

وفي تقرير المهندس الكبير السيد مصطفى ماهر كلام خاص بالمدينة المنورة التي هي جنة من جنات الأرض وفيه وصف مياهها العذبة الغزيرة وحدائقها الغناء وقد ختم تقريره الشائق بقوله :

وإني أسأل الله أن يوفق عباده المؤمنين الى مد يد المعونة الى الأراضي المقدسة قبله المسلمين كل فيما يقدر عليه للتيسير على أهلها والاحتفاظ لهذه البقاع الطاهرة بما يليق بها من الجلال والوقار . اهـ

وتنتهي مجموعة هذه المباحث التي أعظم اليد في اجرائها لطلعت باشا حرب بالتقارير الصحية الجليلة الوافية من قلم العلماء المتخصصين السادة محمد حسن العبد ومصطفى ماهر وحسن حسني راشد الكيائي بوزارة الصحة المصرية وحسن البهيمي وكيل القلم الفني ببنك مصر .

وفي هذه التقارير التحليلات المفصلة الدقيقة لمياه بشر زمزم ومياه عين زبيدة ومياه عين الزعفران في مكة وعين الزرقاء في المدينة المنورة مع التواصي الفنية اللازمة للاستفادة منها .

ولما كانت هذه المجموعة قد نشرت وتوزعت اكتفينا منها بلوحة دالة في هذه الرسالة سائلين الله ان يوفق كلا من الدولتين العزيزتين المصرية والسعودية الى إتمام هذه الاصلاحات الجليلة بخدافيرها فان الاصلاح واجب في كل مكان فكيف البقاع المقدسة .

خلاصة الجواب

« ان المسلمين ينهضون بمثل ما نهض غيرهم »

إن الواجب على المسلمين - لينهضوا ويتقدموا ويتعرجوا في مصاعد الجهد، ويترقوا كما ترقى غيرهم من الأمم - هو الجهاد بالمال والنفس الذي أمر به الله في قرآنه مراراً عديدة ، وهو ما يسمونه اليوم (بالتضحية) .

فلن يتم للمسلمين ولا لأمة من الأمم نجاح ولا رقي إلا بالتضحية ، وربما كان الشيخ محمد بسيوني عمران او غيره من السائلين عن رأينا في هذا الموضوع قد ظن اني سأجيبه ان مفتاح الرقي هو قراءة نظريات (اينشتين) في النسبية مثلاً أو درس أشعة (رونتجين) أو ميكروبات (باستور) أو التمويل في اللاسلكي على التموجات الصغيرة أكثر من الكبيرة ، أو درس اختراعات (اديسون) وان سبب حادثة المنطاد الانكليزي الذي سقط اخيراً واحترق هو كونه لم ينفخ بالهليوم وإنما بالهيدروجين ، والحال في الهيدروجين - وإن كان أخف في الوزن - قابل للاشتعال ، وانه لا خوف من اشتعال الهليوم وإن كان أثقل شيئاً من الهيدروجين - وما أشبه ذلك .

والحقيقة ان هذه الأمور إنما هي فروع لا أصول ، وانها نتائج لا مقدمات ، وان (التضحية) او الجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها ، فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف ودنت منها جميع القطوف والمجاني .

وليس بضروري أن يكون صاحب الحاجة عالماً بعملها حتى يكون عالماً بالاحتياج إليها .

قال لي مرة حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغاني :

« إن الوالد الشفيق يكون من أجهل الجهلاء ، فإذا مرض ابنه اختار له أحنق الأطباء ، وعلم ان هناك شيئاً نافعاً هو العلم لا يعلم هو شيئاً منه ، ولكنه يعلم بسائق حرصه على حياة ابنه أنه ضروري . »

ولم يكن محمد علي عالماً وربما كان أمياً ، ولكنه بعث مصر من العدم إلى الوجود في زمن قصير ، وصيرها في زمانه من الدول العظام بسائق هذا العلم الأعلى الذي هو العقل السليم والارادة ، وهو الذي يبعث صاحبه الى التفطيش عن العلوم وحمل الأمة عليها .

فالمسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما حرضهم عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الاوروبيين والامريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء ، وأن يبقوا على إسلامهم كما بقي أولئك على أديانهم ، بل هم أولى بذلك وأحرى ، فان أولئك رجال ونحن رجال ، وإنما الذي يعوزنا الاعمال ، وإنما الذي يضرنا هو التساؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال . فلننفض غبار اليأس ولننتقدم الى الأمام ، ولنعلم أننا بالفوق كل أمنية بالعمل والدأب والاقدام ، وتحقيق شروط الإيمان التي في القرآن :

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ
الْمُحْسِنِينَ (١) .

لوزان ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٠ .

شكيب ارسلان

« تم الجواب »

(١) المنكبوت : ٦٩ .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة الثانية
١١	نظرة عامة
	شكيب ارسلان ، مسقط رأسه ، نشأته ، أمير البيان ، نضاله وأهدافه ، عودته إلى الوطن ووصيته الأخيرة ، لماذا تأخر المسلمون ، ثلاثة أيام ، أثر الرسالة ، الرسالة في الميزان ، كتبه ومنشوراته بحسب تسلسلها الزمني ، أقوال الاعلام في أمير البيان .
٣٣	مقدمة الرسالة لصاحب المنار
٣٧	كتاب الشيخ محمد بسيوني عمران
٣٩	جواب الأمير شكيب ارسلان
٤١	أسباب ارتقاء المسلمين الماضي
٤٢	فقد المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم
٤٥	المقابلة بين حالي المسلمين والافرنج اليوم

الصفحة	الموضوع
٤٩	اعتذار المسلمين عن أنفسهم ورده
٥٤	نتائج اعانة مصر لمجاهدي طرابلس وبرقة
٥٧	النشيد الطلياني في التحريض على قتال المسلمين ومحو القرآن
٥٩	خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم بخدمة الأجانب
٦٧	كلمة الملك ابن سعود في تحاذل المسلمين وتعاديتهم
٧١	الموازنة بين المسلمين والنصارى في البذل لنشر الدين
٧٥	أم اسباب تأخر المسلمين
	الجهل ، العلم الناقص ، فساد الأخلاق ولا سيما أخلاق الأمراء
	والعلماء ، الجبن والهلع ، اليأس والقنوط ، نسيان ماضيهم المجيد.
٧٨	شبهات الجهلاء الجبناء وردها
٨٨	ضياع الإسلام بين الجامدين والجاهدين
٨٨	محافظة للشعوب الافرنجية على قوميتها
٩١	المبرة للعرب وسائر المسلمين برقي اليابانيين
٩٥	لماذا لا نسمي اليابان واوروبا رجعية بتدينها
١٠١	غوائل الجامدين في الاسلام والمسلمين
١٠٤	آيات القرآن في العمل المبذولة لتفسير القدر بالجبر والكسل
١١٣	كون المسلمين الجامدين فتنة لأعداء الاسلام وحجة عليه
١١٩	مدنية الاسلام
١٢٣	الرد على حساد المدنية الاسلامية المكابرين
١٢٥	اليونان والرومان قبل النصرانية وبمدها
١٢٩	سبب تأخر أوروبا الماضي ونهضتها الحاضرة

الصفحة	الموضوع
١٣٣	حث القرآن على العلم (باعث للمسلمين على سبق الأمم في الرقي)
١٣٨	كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية
١٤١	أسباب انحطاط المسلمين في العصر الاخير
١٥٣	هكذا اذا توجهت الهمم الاصلاحات المعنوية والمادية في البلاد المقدسة
١٦٣	خلاصة الجواب ان المسلمين ينهضون بمثل ما نهض به غيرهم

طبع هذا الكتاب على تطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تليفون ٢٣١٩٣٠ ص.ب. ١٢٩٠